الفصل السابع

الجِهَاد والجَيْش

أجهِزَة القوّة والضَبطِ والرَصْد

obeikandl.com

obeikandl.com

لأواخِر الحُكم الحِزبي برئاسة السيِّد الصادق المهدي ثارَ جَدَلٌ مُحتَدِم حول مغزى أطروحة "الدِفاع الشَعبي" التي صَدَعَت بها الجبهة الإسلاميَّة القوميَّة لأوَّل مرَّة، مُعلنَة تبنِّيها الكامل لها صيغةً تُهيِّئ للقُوى الشعبيَّة، لا سيَّما قبائل مناطق التَّماس مع الجنوب، المُدافَعَة عن أنفُسِهِم أمامَ هجمات الجيش الشعبي لتحرير السُودان. وفيما تردَّد حزبُ الأمَّة لبعض الوقت قبل أن يمنحَ فكرة "الدِفاع الشَعبي" كامل تأييده، مدفوعاً بالتقدُّم المُضطرِد لقوَّات الحركة الشعبيَّة وهي تحصِدُ مُدُنَ الجنوب واحدةً بعد الأخرى وتمضي شمالاً نحو التُّخوم، حيث مناطق النفوذ التقليدي للحزب في جنوب كُردُفان.

أما الحزبُ الثاني الأكبر في المساق الثلاثي (الجبهة، الأمة، الاتحادي) فقد صرَّح زعيمه السيِّد محمد عثمان الميرغني: «**إن إجازة قانون الدفاع الشعبي يعني تقنين المليشيات**»[1]. فإذ كان السيِّد الميرغني يُخاطبُ جماهير دائرة شندي الجنوبيَّة في وسط الشمال بعيداً عن صهيل الخيول والتماع السلاح، كان أبناءُ تلك المناطق نحو تُخوم الجنوب في العصمة الخرطوم ووفودهم من هنالك، يُحاصِرُون مَقَارَّ الأحزاب لا سيَّما حزب الأمَّة الحاكم صاحب الولاء الغالب في تلك المناطق.

وإذ عَبَّرت الجبهة الإسلاميَّة بالدعوة للدفاع الشعبي عن جُملة رؤيتها للجهاد فريضةً لمن اعتُدِيَ عليه، كما عبَّرت عن خُلاصة موقفها يومئذٍ من الحركة الشعبيَّة والجيش الشعبي لتحرير السودان: «**أنها كيانٌ متمرِّدٌ انفصالي موصولٌ بالولاء الغربي وإسرائيل، ثم هي عنصريَّة تستهدفُ العُروبة والإسلام**»، تصاعَدت حملة أبناء المناطق التي مسَّها الضُر في العاصمة وتقدَّموا متضامنين من سائر القبائل والعشائر بمذكرة صارمةِ الكلمات من داخل دار حزب الأمَّة: «**نحن قبائل التماس من قِيسَان شرقاً إلى أم دافوق غرباً نطالب بإجازة قانون الدفاع الشعبي وننادي في هذا المقام كل أبناء القبائل المتاخمة في حالة عدم إجازة هذا القانون بالانسحاب فوراً من مؤسَّسات الدولة وأحزابها التي لا تحميهم، وأن يُشكِّلوا وحدهم قوة يدافعون من خلالها عن وطنهم وعِرضِهِم ودينهم**».

مع إعلان المذكِّرة والاجتماعات التي اتصلت لشهرٍ كامل مع الأحزاب، صرَّح الشيخ إبراهيم السنوسي، عضو الجمعية التأسيسيَّة عن الجبهة الإسلاميَّة القوميَّة: «**إن الجبهة الإسلاميَّة لا تؤيِّد مذكرة القبائل فحسب، بل تقفُ معها بشدَّة ضد قرنق وأعوانه بالداخل والخارج. إن هذه القبائل أعطتنا أمل الجهاد والموت في سبيل الله الذي كاد أن يقتله أتباع الدنيا ومجاميع الشيطان**».

---

(١) صحيفة "السوداني" بتاريخ ٨ يونيو (حزيران) ١٩٨٦.

وإذ بلغ استشعارُ الخطر أقطار العاصمة، تأسّست في ١٥ مايو (أيار) ١٩٨٦ هيأة شعبيّة للدفاع عن العقيدة والوطن، جَمَعَت الأحزاب والنقابات والطُّرُق الصوفيّة والشخصيات القوميّة، واختير المشير عبدالرحمن سوار الذهب رئيساً لها. كانت الهيأة بدورها مقاماً آخر لاحتدام المجادلة بين مُعسكَرَي المواجهة بعد أن تبلورت قضاياهُما وانحسمت مواقفهُما، فُسطاطَين لا تخطئهُما العَيْن وقد انتقلا بآثار المعركة من التَّماسِ إلى المركز.

❊❊❊❊❊

جاءت ثورة الإنقاذ إذن في يونيو (حزيران) ١٩٨٩ وقد تفاصلت الساحة وانتظمت بين معسكر المُوادَعَة والمُفاوَضَة مع الحركة الشعبيّة ومُعسكر مُواجهتها وزَدعها بكُل السُّبُل قبل مسالمتها ولو أثناء مفاوضتها. ولا رَيْبَ أن مُناصِري الثورة لوليدة كانوا رأس الرُّمح في المُعسكَر الأخير، انتظروا مَقدَمَها بالاحتشاد في الشوارع والتظاهُرات التي ترفعُ المَصاحِف في ثورةٍ محدودة العَدَد ولكنها عَالِيَة الصوت استمرَّت مدى شهر رمضان الأخير تُعارِضُ "اتفاق الميرغني/ قرنق" وتدعو للجهاد والاستشهاد.

لكن "الثورة"، مهما يكُن المناخ الذي استقبلها مفعماً بالمُدافَعَة والقتال لم تلبَثْ أن انتقلت بالحرب إلى أفُقٍ جديد لم يشهده تريخ السودان من قبل، عامرٍ بالمجاهدة والإثخان والشهادة، انخَرَطَت فيه بأعداد كبيرة فئاتُ المجتمع الحَضَرِي والريفي المُتعَلِّم والمُثقَّف من الأعمار كافة، التي لم تكن تغشى تلك الميادين قط ولا تقف عليها، ثم لتثير فِقه الجهاد ومفاهيمه داخل الحركة الإسلاميّة السودانيّة موصولاً بواقع الدولة الحديثة ومؤسَّساتها، بعد أن اختبرته في ماضي سنواتها في أطُر المعارضة الشعبيّة المحدودة في تجربة الجبهة الوطنيّة المعارضة للنظام المايوي.

ولكنها في الإنقاذ، ومع تطوُّر المواجهة اتَّسَعَت تتجاوزُ الإطار النظري لمنقولات التُراثِ الإسلامي الذي يذكُرُ الجهاد مفروضاً عيناً في أحوال الغزو والهجوم، لتصله بأصُول الإحياء الإسلامي الذي تصدّت له الحركة الإسلاميّة المُعاصرة، خاصة تلك الداعية لشُمول الإسلام في الحياة إيماناً وفقهاً وتنظيماً يُوحِّد شِعابَ الحياة العامة والخاصة كافة، ولكنها اليوم توحِّده أيضاً بـ"الجهاد" وتصله بأعضائها جميعاً، مهما تكُن الصفة التي ينتسبُون إليها أو الخبرة التي يحملونها، عالِمٌ أو عاملٌ أو طالبُ علمٍ أو عامل أو فَنّيٌّ أو فنَّان، ولكنه في كل الأحوال "مُجاهِد". فقد صَدَرَ قانون الدفاع الشعبي لأوّل أمر الثورة بمرسومٍ جُمهوري مؤقت حاسماً للجدل الذي تطاول إبان حُكم الأحزاب ومستجيباً لأطروحة الجبهة الإسلاميّة القوميّة، التي رأت ضرورة تسليح قبائل التماس أمام عجز

الحكومة والجيش الرسمي لحماية كل تلك المنطقة الشاسعة، ولكن تطوَّرت مع أوَّل تحديات الثورة والدولة نحو مفهوم ''الجهاد'' أو تجييش الشعب وإعداده للأسوأ، فإذ انحازت الحركة الإسلاميَّة منذ منتصف العقد الثمانين لجبهة مواجهة الحركة الشعبيّة والمشروع المناوئ لأطروحتها، الداعي لإقصائها عن الحياة العامة في السودان، فإنها تنهض اليوم لحماية دولتها من خطر الحصار أو الاجتياح العسكري الذي يبدو وشيكاً، وفقاً لاستقراءات الجغرافيا والتاريخ والواقع المؤسِّس للعلاقات الدولية يومئذٍ.

،السابقة المحدودة للحركة الإسلاميَّة في الجهاد والظرْف المحُتَدِم الدقيق الذي شَهِده ميلاد الثورة، والاتصال المُنضبِط لأجهزتها الخاصَّة بالأطُر العسكريَّة المحضة في القوَّات المسلَّحة، ثم القوَّات المسلَّحة نفسها التي أكمَلَت التنفيذ الفني للثورة مسنودة بأطرافٍ كثيرة من خالص جسم الحركة، ورؤية الحركة منذ تكامل خطتها الاستراتيجيَّة نحو التغيير والتمكين لدور الجيش في أطُر دولة إسلاميَّة ضمن حدود وطنٍ مُركَّبٍ يخوضُ حرباً أهليَّة، كل ذلك تجلَّى في حركة متصلة فاعلة ضمن علاقات شديدة الكثافة بالغة التعقيد، تنفعُها السابقة والتجربة ويشُوبُها النقصُ والاضطراب.

لكن مهما تكُن محدودةً وقائعُ تجربة الحركة في القتال المباشر غزوةً، أو الرباط حراسةً لثغور محصورةٍ في عابر مهام الحركة، أو تأمين شخصياتها المُهِمَّة، فإنَّ اتصال عضويتها بقسطٍ من التدريب العسكري منذ الجزيرة أبا وأثيوبيا ثم معسكرات ليبيا، ظلَّ متصلاً يستوعبُ عضويَّة من خالص صف الحركة ويتشعَّبُ عَبرَ مكاتب الأجهزة الحركيّة الخاصة، ليوافي مختلف ضُرُوب الحماية والتأمين أو جمع المعلومات ورَصدِها أو تطوير ثقافتها الفنيَّة في كل ذلك، ليبلُغ مداه بين يديٍّ ليلة تنفيذ الثورة.

إلا أن الفِقهَ الضئيلَ الذي تُوفِّره كُتُبُ التراث الإسلامي حول الجهاد لم يُسعِف التجربة في إطار مجتمعٍ مدنيٍّ كثيف ودولة حديثة محيطة، فانفتح المجالُ واسعاً لثقافة القوَّة وممارساتها لأول عهد الثورة، لا سيَّما أن الثورة نفسها جاءت انقلاباً بالقوَّة يُعطِّل الدستور وينَسخُ القوانين ويُغرِي أنصارها بالمُسارَعَة للحسم، مهما تكُن الحُجَّة حمايةً للثورة أو غضباً للنفس أو محض فرعنة ومزاج، خاصَّة لدى الشرائح الأقرب لعمليَّات التنفيذ الفني المعقَّدة المتكاثرة، التي شَهِدَت بعضاً من الإعداد الدؤوب للثورة وأدَّت بعض أدواره، ثم قُدِّرَ لها إزاء النقصِ الكبير صبيحة الانتقال إلى النظام الجديد أن تَسُدَّ فراغات التأمين وأن تتصدَّى عنيفةً لجيوب نشاط المعارضة، دون دِرْبة كافيةٍ تتبيَّن الأوهام من الحقائق أو تَقوَى ضابطةً بفقهٍ سديد أو ثقافة عميقة تحترمُ حقوقَ الإنسان وتقدِّس

كرامته، أو حتى عهدٍ بأساليب التحقيق ومِهَنِيَّته.

ففور إجازة قانون الدِّفاع الشَّعبي تأسَّست وِفْقَه شُعبةٌ في القوَّات المسلَّحة لمُنَسَّقيَّة الإطار الجديد، التي سُرعان ما أعلنت فتح المُعسكَر الأوَّل للدِّفاع الشَّعبي غير بعيدٍ من العاصمة الخُرطوم، حيث يتكثَّف وجودُ الصف الملتزم للحركة الإسلاميَّة، وحيثُ بدأت قصة العلاقة المُتشابِكَة بين الأطُر العسكريَّة المحضة في القيادة النظريَّة لمنسقيَّات الدِّفاع الشَّعبي، والقيادة الفعليَّة من العناصر المدنيَّة الحركيَّة المُنتسبة إلى الأجهزة الخاصَّة، وامتدَّت من شاطئ النيل الأبيض حيث المُعسكر الأوَّل إلى مسارح العمليَّات في الغابات الاستوائيَّة وأعالي النيل، عائدةً إلى الخُرطوم.

ورغم وضوح الفكرة وراء قانون الدِّفاع الشعبي، فإن الحماسَ الذي سارَعَ إلى إصداره وتطلُّع الكثيرين من المدنيين والعسكريين لتمام تجييش الشعب وإعداده لمواجهة النُّذُر والاحتمالات كافة، فإن ذلك لم يتجلَّ في تمام الإعداد للإنفاذ الأفضل للمشروع، أو التعاطي مع التجاوُب الكبير الذي استَقبَلَت به قواعدُ الحركة الإسلاميّة وقيادتها بداية حملة الدِّفاعِ عن كيان الدولة الإسلاميّة الوليدة الواعدة، أو استثمار البيئة المثالية التي اتصلت بعد ذلك لسنوات في بلاغ رسالة الحركة الإسلاميَّة ونَشر دعوتها، واستيعاب الآلاف التي تهيأت لسَماعِ صوتها ونصْرة مشروعها في المجتمع والدولة(٢).

وإذ أحيت مشاهد معسكر ''القِطِينَة'' لدى المُخَضرَمين من عُضوِيَّته ذكرى مُعسكرات الجبهة الوطنيَّة في سابقة التجربة على الأراضي الليبيَّة تمهيداً لجولةٍ أخرى من الجهاد ضد النظام المايوي بعد فشل محاولة ٢ يوليو (تموز) ١٩٧٦، فإن استعداد مكاتب الحركة الإسلاميَّة الخاصة بعد تجربة الجبهة الوطنيَّة وتعاوُن الليبيين وخِبرَتِهم في إعداد تلك الأنماط من محاضن التدريب، تهيئةً للسكَن والطعام والرعاية الصحيَّة ثم مساحات التدريب وآلياته وسلاحه، كان أفضل بكثيرٍ مما هيأت روح الحماسة الأولى لثورة الإنقاذ لتلك الأعداد الكبيرة الذين لبُّوا النداء مُسارِعين مُتوكِّلين، فقد حُشِرُوا في مساحة مبسوطة من الأرض ولكنها محدودة المباني والمرافق، تحت إمرة القوَّات المسلَّحة وبإشرافها ولكن في غير ما عَهِدَت من مقارِّها وثكناتها التي ظلَّت تُدَرِّبُ فيها جنودها لعشرات السنين.

وإذ أن التدريب العسكري وتهيئة الجندي للقتال يقتضي الدقة الفنيَّة كما يتطلَّب رعاية الصحة والغذاء، فقد كان المعسكرُ الأوّل دون الوسط بكثيرٍ في كُلِّ ذلك. ضِمن

(٢) باستثناء عضو مجلس قيادة الثورة رئيس اللجنة السياسية، فإن القيادة الإنقاذية بإجماعها كانت خلف مشروع الدفاع الشعبي إذ هو مواصلة لأطروحة الجبهة الإسلامية قبل الانقلاب. بينما رأى العميد عثمان أحمد حسن أن الظهور بالمشروع سيُعجِّل بكشف هوية الثورة الإسلامية، وهو أمر تقتضي السياسة تجنبه في تلك المرحلة.

مفارقةٍ أخرى تجلَّت في أنماط المتطوِّعين المتدرِّبين وشدَّة تبايُنِهم واختلاف أعمارِهم ومستوياتهم، فقد تداعت إلى المعسكر ثلَّة من أهل السابقة والجهاد ممَّن كانوا شباباً في النفرة الأولى إبان العقد السبعين من القرن الماضي، وقد لامسوا اليوم العقد الرابع من العمر أو جَاوَزُوه وأصبحوا أرباب أُسَرٍ وآباء مُوقَّرين في الحركة والمجتمع، بعضُهُم قادةٌ في أحيائِهِم أو فُقهاءٌ لَمساجِدِهِم كما أن بينهُم أصحابُ وظائف في الدولة أو رجالُ أعمالٍ ميسورين أو مُقدَّمين في أطُر الفِكر والعِلم والإعلام، لكنهم يعودون اليوم إلى الميدان القديم لا مُناهضين لحكومةٍ طاغوتيَّة ولكن مجاهدين عن دولة إسلاميَّة. كذلك شَهِدَ المُعسكَرُ الأوَّل قليلاً من شيوخ الرعيل الأول للحركة الإسلاميَّة وقد امتدَّ بهم العمر نحو الخمسين والستين لكن ما تزال تَتَّقِد فيهم جذوة الشوق للجهاد عن المشروع الذي أفنوا أعمارهم ينتظرونه ولو قتلاً في الأحراش والساحات البعيدة مدافعين عن المثال المتحقِّق وشيكاً وقد كان بعيد المنال.

كما عَمِرَت المعسكرات منذ الأوَّل بكثيرٍ من هُواة الاحتشاد والذين يتواجدون حيث اجتمعَ الناسُ بدوافِعَ وعزائم مختلفة، قد ينسجمون ويستوعبون في سهولةٍ ويُسرٍ إن كانوا باحثين بصدقٍ لما يملأ فراغ أوقاتهم أو فراغ أهدافهم وقد يبقون غُرَبَاء لبعض الوقت، ومنهم من يظل لغزاً بشخصه ودوافعه تحومُ حوله شُبهةُ التجسُّس والاختراق.

كذلك شَهِدَ المُعسكَر الأوَّل بداية تدفُق الأفواج المُتصاعدة من الجيل الصاعد فوق العشرين ودونه، خرِّيجين بالمئات ثم طلاب بالآلاف فيهم تقريباً كلُّ صَفِّ الحركة الملتزم العام، وقد زاده الانفعال والتفاعُل مع الثورة الجديدة التي بدأت تتكشَّف ملامحها الإسلاميَّة، وقد مثَّلوا جميعاً غالِبَ فُصُول قصة ''الجهاد'' الواسع الذي امتدَّ مدى عشريَّة الإنقاذ الأولى. فئةٌ أخرى مهمةٌ على ساحة مُعسكَرات الدِّفاع الشعبي، العسكريُّون المهنيون، ضبَّاط وجنود قادة ومُدرِّبين، الذين ينتظم المشهد نظرياً كله تحت إمرتهم وإشرافهم وفقاً لمُقتضى القانون والأمر الجُمهوري المؤقت، وتقعُ عليهم مسؤوليَّة التدريب وحِفظُ النظام وتنفيذُ أوامر الإدارة العسكريَّة العُليا. وإذ رُوعِيَ في قادة المعسكر الأوَّل من الضبَّاط أن يكونوا من العناصر الملتزمة في الحركة الإسلاميَّة، سَلِمَت التجربة لأوَّل عهدها من تأزُّم العلاقات بينهُم وبين نمط المتدرِّبين الجُدُد بخلفياتهم المُتباينة ومستوياتهم المُختلفة ودوافِعِهِم للتدريب والانتظام في مثل تلك البيئة، مما لم يَعهَدْهُ ضُبَّاط وجنود القوَّات المسلَّحة في أنماط التدريب التقليديَّة وعناصرها من المتدرِّبين. فقد اجتهد أولئك الضُبَّاط حتى لا تُصادِم البيئة العسكريَّة بأوامرها النافذة الواجبة الطاعة فوراً،

مُستجِدِّين هُم في الأساس مدنيين بعضُهُم شديدُ المدنيّة بحُكم ثقافته وخبرته فلم تبلُغ الخسائر الأرواح، واصطَبَرَ أولئك المجنّدون المتنفون على نقص الإعداد لمرافق المعسكر وقلّة الطعام والشراب وسوئه أحياناً دون الحد الأدنى، كما قدَّروا ما يقوم به جنود التدريب المعلِّمين واحتملوا في سبيل الله ما لقوا من عَنَتِهِم في الضَّبط والمرابطة أو الصَّرف والمُعاقبة.

جمعت إذن معسكرات الدفاع الشعبي منذ مبتدأ التجربة أجيالاً مختلفة وخِبرَاتٍ متباينة كثيفة لا يُتاحُ في معتاد الأحوال أن تجتمع بمثل تلك الأعداد، وفي مناخٍ من الطُّمأنينة والانسجام واتساق السُّلوك والهدف، يَستشعِرون مسؤوليةً كبيرةً نحو غاية سامية ضمن مشروعٍ نبيلٍ للإسلام، هُم بعضٌ منه ولكنهم طليعةٌ فيه تحمي ثغرته الأخطر بالدِّمَاء والمُهَج. إلا أنهم مهما تبايَنَ وعيُهُم بالمشروع الذي ينهضون للدفاع عنه وتفاوَتَ إيمانُهُم واستعدادهُم للتضحية والفداء، فإن العُدة الفكريَّة والتأصيل الفقهي لمقابلة تلك الأعداد الكبيرة واستيعابها في برنامجٍ يُزكِّي وعيَها ويزيدُ علمَها وإيمانَها ويحفظُ سعيَها وجهادَها بالتقوى الضابطة لم يكُن كما ينبغي أن يكون، إذ لم تُهَيَّأ خُطة الجِهَاد قبل بَغتَة الثورة بدراسة الجماعة البشريَّة التي انحنفت إليها بعد التمكين لتجتهد في تصنيفها وتوزيعها، ثم لنَفعِهَا وتطويرها ببركة تبادُل اخبرات وتداوُل الأفكار وتلاقُح التجارب والفيضُ، عائدةً على المجتمع الكبير بما فَقِهَت في دَوْرات التدريب وصَوْلات الجهد.

وإذ قلّ الفِقهُ ضَعُفَت البرامج، لا تُسعِفُها معهودات التزكية والتربية في الأطُر التقليديَّة لعمل الحركة الإسلاميَّة، إذ أظهرت النقلة من الحركة إلى الدولة ورفع نداء الجهاد بعد الدعوة والحُسنى، أظهرت الحاجة إلى فقهٍ دقيقٍ يتصَوَّبُ إلى أصُول بناء الدولة الإسلاميَّة وفُرُوع معاني الجهاد، يُزوِّد المجاهد ثباتاً إذا اشتدَّت المُقاتَلَة وتواضُعاً سمحاً إذا ظَفَرَ بالنصر، أو عاد لمُجتمعه داعيةً وقُدوةً ومواطناً عاملاً صالحاً، لا سيَّما في المجتمعات التي وقع عليها ضُرُّ الحرب وويلاتها ولم تَعهَدْ من خُلُقِ القتال إلا الإثخان فوق الضرورة ولم تعرف عن المقاتلين إلا التجاوُز والعَربَدَة.

اتصل كذلك الحِوارُ منذئذٍ حول مفاهيم التعبئة والإعداد لجُملة الشعب ولخاصة طلائعه المجاهدة كيف تُغرَسُ أصُولها دائمةً في النُفوس إيماناً وأفكاراً، وكيف تبقي جَذوَتها مُستدامة كلّما احتاجت الأمّة أو الدولة أو الجماعة لاستجاشة مكنون القُوى ومذخور الطاقة، أن تنصب مستعدةً حيثُما ارتفع النداء واتَّصل البلاغ، وأن تُنذِرَ قومها إذا رجعت إليهم، فلا يكون الجهاد أو التعبئة له هيْجَة عابرة وفاقا للحَادِثات أو تجاوُباً مع روح الجماعة تَبَاعةً بلا وعي.

لكن الحِوار حول التعبئة الراسخة الذي استهلّه البحثُ عن أصُول الأفكار للنهضة الاستراتيجيَّة الشاملة وبدأ في أروقة الدراسات المغلقة ومؤتمراتها ومعاهدها، لم يتَّصل ويكتمل ليبلُغ جماعات الجهاد الأشد الأطول استمراراً وبقاءً في الميدان من الشباب والطُلاَّب، ويزوِّدهم بمددٍ دائمٍ يَرسخ عندهم منهجَ سلوكٍ وحياة، ولكن تعازَلَت فئاتُ الحركة مع إثخان الجهاد واستيعابه كل حينٍ لأعدادٍ أكبر، ولم يُصَوَّب الجهدُ نحو إنفاذ تلك الرؤية إلاَّ نحو خاتمة العقد الأوَّل للثورة الذي شَهِدَ معظم جولات القتال والاستيعاب له، وظَهَرَت فيه فِئَة بارزة من الشباب تَمتَهِنُ الحرب وتَعتَزِلُ في ميادينها.

لقد شَهِدَت مُعسكَرات الدفَاع الشعبي، منذ أوَّلها وعَبرَ سُوحِهَا المختلفة، الكثيرَ من العَمَلِ الثقافي والفِكري، محاضراتٌ وكلامٌ في مختَلَفِ ضُروب الفِكرِ وموضوعاته مهما تكُن المُفارقَات قائِمَة بين المُحاضِرِ ومُستوَيَات الحاضرين، فقد تجد فيهم من له عهدٌ بالموضوع أو معرفةٌ دقيقةٌ به أفضَلَ من المُحاضِرِ أو هو مجال تخصُّصه، ولكن البرنامج الموضوع من قبل المُنسِّقيَّة أو إدارة المُعسكَر لا يصوِّبُ إلاَّ إلى العدد الأكبر وما يُقدِّرُ أنه يناسب مستواه ويُلبِّي حاجاته الثقافيَّة. فقد ظلَّت الحركة الإسلاميَّة السودانيَّة تتجنَّب المساقات التي تصُبُّ الجميع في قالبٍ نمطيٍ واحد، شأن الجماعات العقائديَّة اليساريَّة التي تُهيِّئ عُضويَّتها عَبرَ مدارس الكادر، أو العقائدية الإسلاميَّة التي تُنشِئُ عُضوِيَّتها عَبرَ الأُسَرِ والحلقات.

******

وكما كَشَفَت مُعسكَرات الدِّفاع الشَّعبي عن قُصُور الأطُر العسكريَّة الرسميَّة في الإمكانات والخيال عن مُوافاة حاجة الثورة لتجييش الشعب بمختلف فئاته، كَشَفَت في فترةٍ مُبكِّرةٍ عن تبايُن الرُّؤى والمواقف بين مؤسَّسة الجيش التقليديَّة بنُظُمِها وضوابطها وعقيدتها القتاليَّة ومن يُمثِّلها في قيادة الثورة، وبين نُظَرَائِهِم المدنيين في قيادة الحركة، خاصَّة الأمين العام. وإذ لم تُطرَحْ صراحةً الأفكار المُختلفة حول طبيعة العلاقات بين كِيَان الدفاع الشعبي المتشعِّب المعقَّد كلما تطوَّر وامتدَّ به الوقت وبين تلك القُوَّة النظاميَّة التقليديَّة الراسخة لعشرات السنين، ضمن حوارٍ أوسع يُناقِشُ أصُول تلك القوَّات المسلَّحة نفسها ويُهيِّئُهَا للتغيير، ظلَّت التِبَاسَات تلك العلاقة وغُموضُهَا سبباً مباشراً يعوق تمام فاعليَّة الدِّفَاع الشَعبي ونجازة مُقاتِليه، فظلُّوا محرومين رغم استعدادهم الكبير وِفقاً لتكوينِهِم وفِئَاتهم العُمريَّة عن أداء دورٍ أساسيٍّ في الجِهَاد أو في البِنَاء، لا يكادون يبلغون إلاَّ حداً محدوداً من التدريب العام والتدريب على الأسلحة لا يُلامِسون آلاتها الأرقى وآلياتها الأقوى، ولم يتغيَّر الحال إلا نحو العام العاشر للجهاد.

وإذ أخلَّت تلك العلاقات المُلتَبِسَة والرُّؤى المُتناقِضَة بسيرة الجهاد وتسبَّبت في مُنتَهَى تطوُّرها في ذات أزمة الحركة الإسلاميَّة التي أفضَت إلى المُفاصلة، فإن الهدفَ الرئيس وراء رُؤية استيعاب الشعب في الدِّفَاع الشعبي ليس محض التجييش ولكن ليَقومَ المجتمع كُله مُؤمناً مُنضَبِطاً عَامِلاً فَاعِلاً مُتزَكِّياً. ومهما تكُن شعائر العِبدة مُتَاحَةٌ حَاضِرَةً دائماً في مناسِكِ الجماعة المحتشدة في المعسكرات أو سُوحِ العمليّات وكتائب القِتال، على نحو ما هُو راتبٌ من نُسُكِ الصلاة والقِيَام والصِّيَام والتلاوة أو دراسات الفِقه والتجويد والسِّيَر والمغازي أو دراسة معهودات كُتُب الأدب الإخواني الحَرَكِي مهما يكُن رتيبا تقليدياً لم يتجدَّد، فإن احتشاد الأعداد الكبيرة من عناصر الطُّلاَّب والشباب الغالبة سواداً أعظم يفوق أعداد الشيوخ والكبار، قد مثَّل موئلاً مثالياً كان له أن يستدرك حتى ثغرات ثورة التعليم العالي ومناهجها التي قَصُرَت عن تمام التحوُّل الاجتماعي والتغيير البنيَوِي المنشود. فالطاقات التي اجتمعت جاءت مُعبَّأة واختارت طوعاً أن تنضم للتدريب والإعداد لتمضي للجهاد، لكنها كذلك مُتباينة في الاستعدادات والذكاء والمواهب والاهتمامات، يتاح لمن يقوم عليها من عَلٍ مشرفاً أن يُصَوِّب لكُلٍ حَسَبَ طاقاته ووفاق مَوهِبَتِه كما هُو معروفٌ في سُنَنِ الحركة الإسلاميَّة ألا تصُب الجميع مُقَولَباً على نمطٍ واحد، وليستفيد المجتمع كله من تلك الطاقات كافة وتعود عليه مواهِبُهَا وأخلاقُهَا تقدُّماً وبركة.

كذلك لم يُصاحِب حركة الجهاد الواسعة عطاءٌ فِكرِي أو أدبي يُوافي كثافة العمليات التي تصاعَدَت مع الوقت، وشمِلَت غالب ولايات الجنوب وامتدت نحو الجنوب الشرقي والشرق الأقصى ثم الغرب نحو التُّخوم أو داخلةً نحو جبَالِ النُّوبة. فإذ اشتَهَرَت أناشيدُ الجهاد بسيطة المعاني واللُّحُون والإيقاع لكنها تسُدُّ الفراغ وتَكسرُ جُموده وتُنَشِّط الروح، بَرَعَ شُعراءٌ مُجيدون بقصائد رصينة تَرَدَّدَ صداها في كُل السودان عَبرَ إعلام الدفاع وصولات "أعراس الشهداء"[٣] أو لدى الاستنفار الذي توالى لسنوات. لكن كلَّما تكثَّفت العمليات واشتدَّ الاستشهاد أو كلَّما استطال المقامُ والارتكان، تبدَّت مظاهر

(٣) مع تطوُّر العمليات وتزايد الاستشهاد ظهر ما عُرف بـ"عرس الشهيد" والذي أثار جدلاً وقصصاً، خاصة في دوائر المعارضة للإنقاذ، وقد بدأ لأوّل مرّة من قبل إحدى أمهات الشهداء في منطقة الخرطوم استشهد ابنها في ذات الأيام التي كانت تعد العُدَّة بالكامل لزواجه، وإذ قامت بكل الطقوس والمراسم السودانية في اليوم الثاني لتلقيها النبأ وسط عدد من قادة الحركة الإسلامية، تجاوب معها الحاضرون وهُم يستشعرون أثر الصدمة على تصرُّفاتها، ولكن البعض الآخر اعتبره سُنَّة حميدة فأصبح تقنيداً في كل منازل الشهداء إذ يحضُر المُجاهدون ويرددُون أناشيد الجهد وشعاراته أو يلقون الخُطب والكلمات مما يُسهِمُ في تخفيف المصاب على أهل الشهيد، خاصَّة لدى الأسر التي لا تنتسب إلى الحركة الإسلامية ولا عهد لها بالجهاد والاستشهاد. ولم تشهد تلك المناسبات عقد قران على "الحُور العين" سوى أحاديث لقادة الحركة يتمنون للشهيد أن يكون في دار أبرك من داره مع الشُهداء والصدِّيقين والحُور العين والتي مثلت مادة لذلك التأويل البعيد في تلك الأجواء المحتدمَة بين الإنقاذ والمعارضة.

التديُّن الصُّوفي التقليدي، وانتشرت ''المَسَابِح'' في أيدي المجاهدين كافة واتخذ كلٌّ منهم ''وِرْدَهُ'' و''مأثُوراتِهِ'' وداوم كثيرون على ''الوظيفة الكبرى'' و''الوظيفة الصغرى'' يستعملون ذات مصطلح طُرُق التصوُّف ويُؤدُّون ذِكرَهُم وفقاً لآدابهم، بغير تجديد يصلُ صُوَرُه، أو مضمونه بأفكار الحركة الإسلاميَّة عامة أو بظرف الجهاد المحيط المتحرِّك المتجدِّد. فكلَّما أوغَلَ المجاهدون في أنماط التربية التقليدية تضاءلت مفاهيم الفكر الإسلامي وانحسرت قراءاته ومداولاته وظهرت في أيدي المجاهدين كتب عصور الجمود الصفراء، وعَكَفَ آخرون حتى في صفوف الضباط والجنود النظاميين يحفظون القرء ن، فبعد راتب حلقات التلاوة عقب الصلوات لاسيَّما صلاة الفجر، قامت حلقات الحفظ مثاني ومجموعات لاسيَّما من ينتظرون دورهم في الشهادة يرجون علواً في درجات الجنَّات بقدر حفظهم من آي القرءان وسُوَرِه، ولا يكادون يقربون كُتُب الحركة الإسلاميَّة المعروفة فضلاً عن أدب الفكر الإنساني عامة وكتبه، بل ينفرون ممَّن يقرأها وينأون عن مواضيعها وينهَون عن إثارة مشكلاتها في ثكناتهم ومُتحَرَّكاتِهِم.

ومع انتشار روح التصوف وتوالي حلقات التلاوة والحفظ وختمات القرءان، انحَسَرَت كذلك أدبيات الجهاد وأناشيده وقصائده لتسود المدائح والأذكار والأوراد المنسوبة إلى طُرُق التصوُّف مهما تكُن، تِيجَانِيَّة أو سَمَّانِيَّة أو شَاذَلِيَّة أو خَتمِيَّة أو أنصارِيَّة أو غير ذلك، ثم تقاليدٌ من ثقافة كتائب الإخوان القرءانيَّة القديمة منذ تعاليم الإمام حسن البنَّا في ختم القرءان بالدُّعاء المُطوَّل وما يعقُبه من أحاديث الإيمان والمدائح والإنشاد، ثم الطعامُ المحدود احتفالاً بختم القرءان مما عُهِدَ في غالب مساجد السودان (التُّمُور والزلابية والشاي)، في ذات المناخ الذي لا يحب الفكر والثقافة ويتشاءمُ من الكتب[٤].

❊❊❊❊❊

نحو خاتمة العام الأوَّل للثورة، نفَّذت مكاتب الحركة الخاصَّة قراراً رسمياً من المكتب القائد يَحِلُّ غالب أجهزتها التي ظلَّت قائمةً إلى حين الإعداد للثورة ومباشرة تنفيذ مراحلها الفنيَّة المختلفة، وصَرَفَت غالب طواقِمِها الوسيطة والدُنيا، لتَنسَلِكَ في الأجهزة الجديدة التي شَرَعَت الثورة في تأسيسها أو إعادة تأسيسها والتي تُشابِهُ بوجهٍ من الوجوه

(٤) لدى مفاصلة الحركة الإسلامية (١٩٩٩) دعت بعض الأصوات التي انحازت للحكومة المجاهدين إلى التزام جبهة الجهاد، والانصراف لها دون نزاع السلطة في الخرطوم. وإذ أن غالب المجاهدين ظنوا بعيدين عن تطورات الصراع وعن الفقه الذي يجعل الجهاد لتمكين أهداف وقيم وليس محافظة على سلطة فرد أو حزب، تصدى لهم المجاهدون أهل الوعي والعزائم أن الجهاد يقوم سجالاً وقتالاً وشهادة في سبيل أصول ومبادئ وقيم تؤسس عليها دولة الإسلام، فإذا انقلبت طغياناً بغير شورى ودهرية بغير مبادئ، بَطل الجهاد.

عملَها السابق، شأن الأمن والدفاع الشعبي والخدمة الوطنيَّة والشُّرطة اشعبيَّة.

كما استبَقَت بعضَ مكاتب للحاجة إلى وظائِفِهَا في مرحلة ما بعد الثورة والتمكين، شأن أجهزة التوثيق والاختيار لكُليَّات الحرب والشرطة أو الأمن أو اسُّجُون لانتخاب العناصر التي تُغذِّي تلك المعاهد، ثم تَشغَلُ الوظائف والمهام التي كانت مهمَّة نحو التمكين لإتمامه وتأمينه، لكنَّها مهمَّة كذلك بعد التمكين لِحِفظِ المشروع، لا وجوداً فحَسْب بل أهدافاً وغايات تَنفَذُ مُتَّسِقَة مع أهداف وغايات مؤسَّسات المجتمع والدولة كافة، خاصَّة لدى مراحل الانتقال التي تتداخلُ فيها أهدافُ الثورة وبرامجُها أو تتناقضُ مع المفاهيم التي كانت سائدةً في تلك المؤسَّسات، و لتعادل العناصر القائمة فيها بما رَسَخ لديها من مفاهيمَ ونُظُم وأنماطِ في السُلوك، وتـداخُلِهِم مع عناصر الثورة من الإسلاميين المدنيين أو العسكريين، في توسُّعٍ كبيرٍ مُباغِت لطاقة الأجهزة الخاصة الفكريَّة والعمليَّة.

كما استوعبت تجربة الدفاع الشعبي إحدى أهمِّ محاولات الإصلاح للدولة والمجتمع عَبرَ استيعاب عناصر الخِدمَة المدنيَّة بوظائفهم وتخصُّصاتهم المختلفة ودرجاتهم المتفاوتة في الهيكل الراسخ منذ وقتٍ طويل. فقد انفتحَت مُعسكَرات الدفاع الشعبي لمختلف الدفعات من المُوظفين والعُمَّال، جاءت مجموعاتهم الأولى في غالبها مُستَرِيبَةً أو كارهةً للقرار المُباغِت الذي يَكسِرُ مألوفات حياتها الوظيفيَّة ويتدخَّلُ في خُويِّصَةَ أمُورها، لكن ما لبثت الحياة الجديدة أن استَهوَت الكثيرين من أدنى السُلَّم الوظيفي أو أعلاه مهما تكُن أسماء الوظائف وألقابُ حامليها، إذ كَسَرَت رتابة اليومي المكرور نحو حياةٍ جديدةٍ مهما تكُن محصورة متقشفة لكنَّها في غالبها مفيدة طريفة، فتوالت جماعات الخدمة المدنيَّة على مساحات مُعسكَرات الدفاع الشعبي التي انتشرت وتوسَّعت في كل السودان، تقضي نَحوَ شهرين في التدريب العسكري البدني والروحي، وتعتادُ على شيءٍ من الجَدِّ والانضباط في العمل والوقت، وتَشهَدُ برامج التزكية وبعض محاضراتٍ في الفِكرِ والثقافة، وتَسرِي فيهم رُوحُ الجماعة اللازمة لنجاح كُلِّ عمل، وقد تُبتكَرُ أنماطٌ من المسابقات والتنافُس في الأدب أو الرياضة، ثم يعود الجميع بذكرى طيِّبة يحملونها تُحَفِّزُ الذين من بَعدِهِم.

إلا أن الفكرة الطَّمُوح التي ترمي لإصلاح المجتمع وراء إصلاح الخدمة المدنيَّة، لم تُهيَّأ لها الشُروطُ الفكريَّة والعمليَّة المناسبة لأهميتها ودِقَّتها وأهدافها الكبيرة، لا سيَّما في المرحلة الأولى التي تجاوزت فيها حماسة الثورة طاقة الفِكرِ والنظر ثم الرَوِيَّة في الإعداد والتجويد. فالخدمة المدنيَّة مهما نَشِطَت وانضَبَطَت، فإن استثمار ذلك نحو النَّجَازة والإنجاز يتطلبُ أكثر من جُملة محاولة الإصلاح التي تعرَّضنا لها في تأمُّلات الإنقاذ

الأولى، بل إن إصلاح الخدمة المدنيَّة مهما يكُن سيُساهِم بقدرٍ في التحوُّل الذي تنشُدُهُ الحركة الإسلاميَّة لمجتمع السودان يُوافي عدّها ووَقعهَا في الحياة عامَّة، وفي أخلاق المجتمع وعِلمِه وصِحَّته ورَخَائِه. ولكن إلزام الجميع دعوةً بالقرار الإداري لدخول مُعسكرات الخدمة كان يتجاوزُ في ساعة إمضاء القرار لدى قيادة الحركة والدولة مَظهَر الجَمعِ والاحتشاد والانضباط، كما يتجَاوَزُ محض فكرة تجييش الشعب كما في تجارب الطلائع والرُوَّاد التي سنَّتها ومضت عليها الاشتراكيَّات العالميَّة في عهد الحرب الباردة، نحو صلاح الإنسان وخلاصه من فراغ الوقت أو فراغ الأهداف إلى مؤمنٍ لغاية فاعلٍ مفيد واضحِ القَصْدِ والسبيل، ونحو تبديل صورة الخُلُق السوداني السائد المُتَسَيِّب في المواقيت والمُتَسَوِّف في العمل إلى إنسانٍ معاصر، منضبطٍ بالوقت مستثمرٍ له فيما ينفع منفعلٍ بالعمل قائمٍ له. وإذ حدَّدت الاستراتيجيَّة القوميَّة الشاملة بعد ذلك بجلاءٍ الأهداف العُظمى ومراحلها في الخطة العشريَّة، فإن إصلاحَ الإنسان عبر إصلاح مؤسَّسات المجتمع ظلَّ يحتاجُ لجهدٍ خاص في إطار الاجتهاد الكبير الذي صاحَبَ العملَ في الخُطَّة الاستراتيجيَّة، وضِمنَ فلسفة التعبئة المُستدامة التي بدأ الحِوارُ حولها والتداوُلُ، لكنه لم يكتمل قط.

لكنَّ شعارات تبديل المجتمع و"إعادة صياغة الإنسان السوداني" قد طرحتها الثورة في ظِلِّ نظامٍ شُمولي وإطارٍ لا يستذكرُ الديمقراطيَّة إلاَّ فوضى، ثارت عليها الثورة نحو ذلك الحديثِ الكثيف عن الضَّبطِ والانضباط. فقد أثارت تلك الشِعاراتُ حفيظة كثيرٍ من أهل الفِكرِ والثقافة السودانيين خارج أطُر الحركة الإسلاميَّة، خاصَّة أصحاب المُناوَءَة الشديدة لأفكارِها والمُعارَضَة الأحدّ لحُكمِها واستشعروا فوراً نفوراً أُضيف إلى توجُّسِهم منها، إذ ظلوا يرون في أخلاق السودان الموروثة وأعرافِهِ التليدة مهما تكُن أديانُ السودانيين وثقافاتهم ما يستحقُّ أن يُحفَظَ ويُستَمسَكَ به. وإذ عُطِّلت الحُريات السياسيَّة، ضنَّ الكثيرون بالمُشاركة في المُداولات التي دَعَت إليها الثورة للإصلاح الاستراتيجي الشامِل، مع سُوءِ ظَنِّهِم في مقاصِدِ الإنقاذ وسُلوكها الذي فهِمَته احتكاراً للإسلام بعد احتكار الحُكم والدولة. وكان الأوفَقُ للحركة الإسلاميَّة أن تسمَعَ لقولِهم وأن تَبسِطَ تلك الأفكار لمدىً أوسَعَ من الحُريَّة حتى يطمئن أولئك أنها لا تَعمَدُ إلى الموروث الطيِّب لتَجتثَّه من جُذور المجتمع، ولكن دَفعُ أخلاقٍ فاعلة يقتضي إزاحة الأفكار الميِّتة المُعيقَة كما يقتضي أن يُبطِلَ مفعولَ الأفكار المُستورَدَة القاتلة، وأن التحوُّل والتغيير لا يكونُ إلاَّ بالرضى لا الإكراه والقَهرِ والقُوَّة، كما ظنَّت بعضُ النُّخبة الإسلاميَّة العسكريَّة والمدنيَّة المُتعسكِرَة.

كان الدفاع الشعبي هو البابُ الذي دَخلَت منه الأعدَادُ الكثيفة من طُلاَّب الحركة الإسلاميَّة إلى ميادين الجهاد في ساحات السودان المختلفة، وإذ ظَلَّ الطُلاَّب في منشأ الحركة منذ تأسيسها وعَبرَ مراحِلِها المختلفة الفئة التي تُجَسِّدُ العمودَ الفقري لغالِبِ عمل الحركة الإسلاميَّة ونشاطها، خاصَّة وقد ظلّت الحركة في أغلب مراحِلِها مُعارِضَةً لأنظمة الحُكم، يشتدُّ وقعُ الطُلاَّب في عملها مع شدَّة المناوءَة والمقاومة للأنظمة، فإذا خفَّت المُعارَضَة إلى الهُدنة والمُسالمة انصَرَفَ الطُلاَّبُ إلى نشر الدعوة وكسبِ الأولياء الذين مثَّلوا السواد الأعظم من أعضاء الحركة الإسلاميَّة، وسِوَى العدد المحدود الذي دخل إليها من عمل الأحياء أو أطُر العمل المهني أو السُّجون والنقابات ومراكز الاغتراب، فإن الجميع استُقطِبَ من معاهد العِلمِ وقاعاتِ الدِّراسَة وداخليَّات السكَن الجماعي، وقد بدأت عندهم خُطة العَمَل الاستراتيجي نحو التمكين وتهيَّأوا لها بمُضاعفة العضويَّة قبل إعلان المُصالحة الوطنيَّة.

وإذ اتَّسعت عضويَّة الحركة الإسلاميَّة في المجتمع خاصَّة بعد المُصالحة الوطنيَّة، ثم مرحلة الجبهة الإسلاميَّة القوميَّة، بمؤتمراتها الشعبيَّة الكبيرة وكسبها النيابي المُحترم وفاعليَّتها في الأعمال والسُّوق بعد الإعلام والسياسة، إزاء ذلك التطوُّر نَقصت أهميّة الطُلاَّب في أطُرِ الحركة وانحَسَرَ وقعُهُم الذي كان بالغاً في مجتمعاتهم المصنوعة المؤقَّتة لصالح وقْعِ الحركة الكبير في المجُتمع. لكن مهما انحَسَرَت أهميَّة الطُلاَّب في عامَّة عمل الحركة وصورتها، فقد ظلوا رصيداً في احتياط الحركة الأساسي للمُستقبل الذي يُمثِّلون كل عُدَّته الواعِدَة، فكان مسؤول أمانة الطُلاَّب عضواً في القيادة التنفيذيَّة العُليا للحركة عَبرَ كل التحوُّلات والتقلُّبات والظُّروف، كما ظلَّ اختياره من قبل الأمين العام يخضعُ لاختبارٍ دقيق، فتعاقَبَ على المنصِب أهَمُّ العناصر الشابَّة في القيادة، يُتَوَخَّى فيه مَقدِرَاتُ العطاء في العمل العام السياسي وفي التواصُل مع العضويَّة وتوجيهها ونُصحِها، يُعينُه مكتبٌ من أهل الدربة والثقافة والالتزام. لكن الثورة، رغم ما صاحبها من ثورة التعليم العالي، التي قفزت بأعداد الجامعات إلى أضعافٍ مضاعفة تجاوزت لسبع إلى ما يُقارِبُ الثلاثين جامعة وبأعداد طُلاَّب التعليم العالي إلى عشرات الآلاف، ورغم ما يحتاجُهُ ذلك الانفجار من إعدادٍ وعُدَّة ضخمة لم يتسنَّى لدولة الثورة الجديدة أن توفِّرها، فإن هَمَّ الدولة في توسِعَة الإطار الرسمي للتعليم العام والعالي قد طَغى على هَمِّ الحركة في مُوالاة عملها الدؤوب في كسب الأنصار وتزكيتهم وتأهيلهم، واختيار الأفضل علماً وعملاً لقيادتِهم وإعانته بالأفضل خبرةً وتأهيلاً، وإن لم تَسُد ثورة المناهج في التعليم ثغرة التغيير

الاجتماعي المطلوب لأجيال المستقبل، كان الدفاعُ الشعبي والجهادُ المدخَلَين الجَديدَين اللَّذين وَالَيَا تأثيراً بالغاً على قطاع الطُلاَّب، فإذ تدافَعَ الطُلاَّب بالآلاف إلى مُعسكَرات الدفاع الشعبي، ونحو سُوحِ الجهاد، أصبح الطُلاَّب عنصراً مهماً من عناصر القوَّة في السلطة الجديدة، تتصارعُ مع قيادته ونُفُوذِه مُنسَّقيَّة الدِّفاع الشعبي وقِطاعُ الطُلاَّب وجِهازُ الأمن، ثمَّ هو موصولٌ بالجيش وسياسة القُوَّات المسلَّحة في العمليَّات، ومقطوعٌ نسبياً في خِضَمِّ كل ذلك عن قيادة الحركة، ورغم بلائِهِ الجليل في الجِهَاد والرباط فقد عَربَدَت فيه قياداتٌ أدنى عن مستوى القيادات المعروفة السابقة، وموصولةٌ بدورها بالأجندة الشمولية النزَّاعة للقُوَّة بغير فِكرٍ وحُريَّة.

كانت الكلمة الأعلى الأبلغُ أثراً في قِطاعِ الطُلاّب هي ''الاستنفار''، فمُنذُ أوَّل الجهاد انسَلَكَ الطُلاَّبُ في مُتحرِّكات القُوَّات المسلَّحة، وبتوالي الانتكاسات في العام الأوَّل على محاور العمليات كافة، واضطراب التخطيط العسكري بِسَبَبِ تكاليف تأمين الثورة في مركز البلاد العاصمي، والتي تطوَّرت باهظةً بتوالي التحرُّكات والانقلابات العسكريَّة الفاشلة، استعاد الجيشُ الشعبي المُبادأة تماماً من القُوَّات المسلَّحة بعد فشل ثلاث عمليَّات رئيسيَّة عام ١٩٩١ (أعالي النيل وبحر الغزال وغرب الاستوائية)، ليبدأ التخطيط في استيعاب الطُلاَّب مجاهدين في المرحلة التالية مباشرة، والتي اشتَهَرَت بالاسم الرمزي ''صَيْف العُبُور''، وقد تَنَامَت كذلك مخاوف الاجتياحِ من الجنوب، بعد فَشَلِ إسقاط الثورة بالانقِلاب من الخُرطوم.

فَتَحَت إذن عمليَّات صيفِ العُبُور الطريق لتدفُق الآلاف من طُلاَّب الجامعات والمعاهد العُليا وكثيرٍ من تلامذة المرحلة الثانويَّة إلى الجنوب، ضِمنَ عمليات القُوَّات المسلَّحة لاستعادة المُبادرة وتأمين الثورة، ثم الكسب السياسي الكبير الذي ظلَّت انتصارات الجيش تمُدُّ به الثورة، لا سيَّما تحرير المُدُن ذات الأسماء المعروفة واستعادة احتلالها من قوَّات الجيش الشعبي. وإذ تصاعَدَ الشَغَفُ السياسي في الخُرطوم بأنباء التحرير تصاعَدَت أهميَّة الجِهَاد السياسيَّة، وتصاعَدَ الاهتمامُ بالمجُاهدين في قوَّات الدفاع الشعبي، لا سيَّما الطُلاَّب الذين تبيَّن جلياً مُنذُ المعارك الأولى مَدَى استعدادهم للفداء وقابليتهم للتعلُّم، وتجاوُبهم مع المهام الأصعب التي تكِلُها قيادة المعركة العسكريَّة لهُم.

ورغم الاضطراب الذي شابَ خُطَّة القُوَّات المسلَّحة في التخطيط لمعارك صَيْف العُبُور الأولى، خاصَّة المحور النُّهرِي على البواخر النيليَّة ''مِحوَر مَلَكَال/ بُور'' والذي شَهِدَ العدد الأكبر من شُهداء صَيْف العُبُور (نحو ٥٠ شهيداً في هجوم الجيش الشعبي

obeikandi.com

على البواخر من البر)، فإن تلك المرحلة لم تشهَدْ سِوَى آحادٍ من المجاهدين مضوا شُهَدَاء، لكنَّ أسماءَهُم التي سُرعان ما انتشرت بين الطُلاَّب في الجامعات وصُوَرَهم التي امتلأت بها مقاهي النشاط، ثم الاحتفالات والخُطَب في ''أعراس الشهدَاء'' عند أهلِهم أو في كُليَّاتِهم ومَعَاهِدِهِم، كل ذلك دفَعَ المزيد للتجاوُب مع الاستنفارات التي تَوالَت بعد ذلك تَرفَعُ النداء ''حيَّ على الجِهَاد''، ومع تَبَدُّل مناخات العِلمِ والدِّراسَة إلى الأجواء الحربيَّة توالى تدفُّق المجُاهِدين حتى ضاقت بهم مُعسكَرات الدفاع الشعبي. ورغم تدريبٍ محدودٍ يناله المجُاهد قد لا يتعدَّى الأسبوعين في بعض الأحيان، فإنه يجِدُ في ساحات الجنوب خاصَّةً سَوانِحَ أفضل لتجويد التدريب وإتقان السلاح، ثم الاشتراك في بعض المعارك مع القُوَّات المسلَّحة، ما زَوَّدَ المجاهدين بمعرفةٍ في كيفية تنظيم العمليات وتكتيكات الهجوم والانتشار والانسحاب وإخلاء الجرحى والشُهداء.

كان كل ذلك تحت إمرة القُوَّات لمسلَّحة ووِفقَ تقاليدها التليدة في حرب الجنوب، وإذ أن غالب المعارك التي دارت لتحرير المُدُن الكُبرى كانت مباغتةً، وفي ساعة تَضَعضَعَت فيها طاقة الحركة الشعبيَّة بعد الضَرَبَات القويَّة التي جاءت من داخلها بانشِقَاقِ مجموعة النَّاصِر، كانت الخسائر من لشهداء والجرحى عامة محدودة وهي أقلُّ عدداً في المجاهدين. ولكن مع تدفُّق الأعداد الكبيرة من المجاهدين، واكتشاف القيادات الإسلاميَّة في الجيش والدفاع الشعبي مدى نجازَة مشاركَتِهِم في العمليات ومَلَلِهِم من التحرُّك المحسوب البطيء في مُتحرِّكات الجيش، وشُعورهم بالعطالة إذا استطال الارتكاز ينتظر المَدَد أو يتحيَّن الفُرص، ومع تزايُد سُمعة الجهاد والمجاهدين، أطلَّت برأسها أولى مظاهر الفوضى التي شَابَت جملة حركة الجهاد والمجاهدين، وكثافة أعداد المُستَشهِدين من البِضعِ نحو العشرات والمِئِين، منذ أواخِرِ النصف الثاني من العقد التسعين وفور اكتمال عمليات صَيْف العُبُور الثانية(٥).

كان تحريرُ المُدُن الكُبرى في الجنوب هدفاً سياسياً في المقام الأوَّل إذ أنه يُعلَنُ في الخرطوم وتَستَتبِعُهُ فوراً مظاهرُ الابتهاج والتظاهر وسُمُو الرُوح المعنويَّة للشعب لا سيَّما الشيعة الإنقاذيَّة التي تَنَامَت واتسَعَت، خاصَّة بآثارٍ من تلك الأنباء وحُسن استثمارها من قِبَلِ ''إعلام الدِّفاع الشَّعبي''، ثم هو كذلك موصولٌ بسَير التفاوُض مع الحركة الشعبيَّة

(٥) يقول العميد السر أحمد سعيد رئيس شعبة العمليات الحربية في إدارة العمليات بالقيادة العامة عن عمليات صيف العبور رقم ١: «لقد فوجئتُ تماماً حينما تأكد لديَّ في الأيام الأولى لوجودي داخل فرع العمليات الحربية أنه لم تكن هناك خطة مصدّق عليها ومعتمدة من قِبل القائد العام في القيادة العامة ولقد بحثت عنها في كل مكان بصفتي رئيساً جديداً لشعبة العمليات فلم أجد لها أثراً». كتاب السيف والطغاة.. القوات المسلحة السودانية والسياسة.

Obeikandi.com

لتحرير السودان الذي توالَت جولاته، كما توالَت عليه تدخُّلات العسكريين السياسيين، والسياسيين العسكريين، حتى كأن التوصُّل إلى اتفاق سلام قد تَعطَّل بالكامل بين يَدَي تمامه، ينتظرُ تحرير "نِمُولِي". فبَعدَ الاستيلاء على (بُور، يَرُول، شَامبِي، تُورِيت، فَشَلا، كَبُويْتَا)، سُرعانَ ما امتدَّ الأمل واتَّسع ليُعَبَّر عنه ضِمن خُطة "صَيْف العُبُور ٢"، لتحرير المُدُنِ المُهِمَّة الأخرى والتي ما تزال في قبضة الجيش الشعبي والحركة الشعبيَّة لتحرير السودان (جَبَل بُومَا، نِمُولِي، كَايَا، يَامبِيُو، أنزَارَا، طُمبُرَا).

وإذ أن الجيش ومؤسَّسته القُوَّات المسلَّحة ورُسُوخ تقاليدِهِم في رسم الخُطط والحركة والقتال، بل وعقيدتهم القتاليَّة نفسها، واعتيادهم على حرب الجنوب، ومن ثمَّ أهدافهم الخاصَّة والعامَّة التي قد لا تُوافي أهداف ثورة الإنقاذ وروحها، المتحمِّسة المتطلِّعة للإنجاز السياسي الفوري والكبير في ذات الوقت، وإذ هُم مؤسَّسةٌ أخرى من مؤسَّسات الدولة الوطنيَّة الحديثة، التي وضع أُسُسها النظريَّة والعمليَّة الاستعمارُ الغربي وفق تقاليده وخُططِهِ ومَصالِحِه في المُستقبل، وقد بَدَت عليها جميعاً (مؤسَّسات الدولة السودانيَّة) نحو أوَّل العقد التسعين بداية مظاهر الشيخوخة والجُمود ثم الفوضى بسبب توالي أنظمة الحُكم وتبدُّل الحاكمين واضطراب المشهد السياسي، فإن سَدَّ النقص واستدراك المُفارقة الروحيَّة والعمليَّة قد وقع أغلبه على المجاهدين في الدِّفاع الشَّعبي خاصَّة قِطاع الطُلاَّب واستعداده الفوري لرَفدِ العمليات بالأعداد الكبيرة التي تحتاجُها، فهُم قد جاءوا أصلاً أفواجاً باسم الدفاع عن كِيانِ دَولَة الإسلام تحدُوهم روحُ الثورة ونداءاتُ الجِهَاد والتَّوقُ إلى الشَّهَادَة، ليكونوا بعضاً من جيشٍ لا يكاد يُدرِكُ تلك الأشواق، يقومُ فيه جنودٌ وضباطٌ بعددٍ مقدَّر من غير المُسلمين، بل وتقومُ فيه روحُ الزمالة بعضاً من عقيدته العسكريَّة، لا يكادُ يؤمنُ بالقتال الأمثَل إلا بين رِفاقِ السِّلاح الذين ضمَّتهم فِرَقُ السلاح الواحد، وقد اشتركوا في تدريباته ويتشاركون في ثكناته.

رغم أن المجاهدين لم يجدوا أبداً اعترافاً من قادة الجيش وكبار الضباط فقد ظلوا يخوضون المعارك ويستشهدون بالعشرات، لكن إلى جانبِهِم ضُباطُ الصَّف وصغارُ الضباط، وباستثناء عناصر قليلة من قادة الوُحدات الكُبرى (قيادة المنطقة الاستوائية، قيادة بحر الغزال، قيادة منطقة أعالي النيل) ظلُّوا معزولين عن صميم اهتمام الجيش وخُطَطِهِ، لكن في المُقابِلِ اعتَرَفَ لهُم وتَجَاوَبَ معهُم ضُبَّاطُ القيادة السياسيَّة، لا سيَّما الأصغرُ سناً الموصولين بميدان الحرب، كما تجَاوَبَ معهُم الجسمُ الأكبر في الحركة الإسلاميَّة، وسُرعانَ ما تجلَّى التجاوب اهتماماً من أثرياء الحركة ورأسماليها، كأنهم

يُنفِقُون بغير حِسابٍ إذا ما عَرَضَ لهم من يجمع الصدَقَات في سبيل الله، كما تجلَّى في اهتمام الجامعات بالفئة التي أضحَت ظاهرةً في الطُلاَّب، فتأسَّست في كل جامعة إدارة خاصة بالمجُاهدين تُوالي استنفارَهُم وتُقيلُ تَعَثُّرَهُم الأكاديمي ولو تجاوزاً لقانون الجامعة ولوائِحِها، وتمُدُّهُم في مناطق العمليّات بما وسعِهَا من زادٍ تُخرِجُهُ من ذ ت موازنة الجامعة. ومِثل إدارة المجاهدين المحدودة في الجامعات، تأسَّست هيآتٌ خيريَّة في الخرطوم، تُصَوِّبُ نحو احتياجات المجُاهدين فَحَسْب، كما انتظمت التبرُّعات للجهاد صَدَقاتٍ من المؤسَّسات الماليَّة من مصارف وشركات، ثم سائر أعضاء الحركة الإسلاميَّة والمنحفين للإنقاذ، بحثوا جميعاً عن سُبُلٍ يدفعون فيها سَهماً للجهاد سراً وجهراً مهما كَثُر ولو عونا لسَرِيَّة أو كتيبة، أو قَلّ ولو وجبة واحدة تبلغ الجَرحَى في مُستشفيات الخُرطوم.

إزاء الاهتمام المُتعاظِم الخاص تميَّزت في سُوحِ الجهاد فئة المجاهدين المنسوبين إلى الدفاع الشعبي، تتشعَّب إماراتهم منسوبين إلى جامعاتهم أو إلى قطاعاتهم أو إلى شخصيات في قيادة الجيش أو الدِّفاع الشعبي، لكنهُم جميعاً ينزلون منازل غير منازل الجيش، تأتيهم أزياؤهم وطعامهم بأفضل كثيراً مما عَهِدَ الجيشُ النظامي مَدَى رِباطِه في الجنوب أو الشرق أو جنوب كردفان أو النيل الأزرق، قد يأتمرون بأمر قيادة كتائب القُوَّات المسلَّحة أو فصائلها وسراياها لأنهم بالضرورة يدخلون المعارك بعضاً من قتالهم وتبعاً لهم، وأحياناً أخرى لا يتلقون أوامرهم إلاَّ من قيادة خاصة من ضُبَّاط الحركة الإسلاميَّة أو قيادات الدِّفاع الشعبي، ثم هُم يخلون جرحاهُم وشُهداءَهِم بأنفُسِهِم، لا يعبأون أحياناً بجَرحَى القُوَّات المسلَّحة، كما قد تُعامِلُهُم بالمِثل.

وإذ امتدَّ القتال وأثخَنَ، تفرَّعت بُؤَرُ المجاهدين وتَزَايَدَ عددُها غيرُ مُنسَّقة تُلامِسُ الفوضى، وحُسْنُ حالهم المادي الظاهِر كله مقابل سُوء أحوال الجيش الذي يجاورهُم في المُدُن والمُتحرِّكات والقتال، ولكنه قد يَلبَس الأسمال وينتعل الأرض وهُم لهُم من ملابس العمليات وافرٌ يزيدُ عن حاجة البعض، وإذا امتدّت بهم الإقامة في رباط العمليّات غادروا إلى الشمال لا يمنعهُم مانع، وهُم يَشهَدون بأم عَينِهِم جُنودَ القُوّات المسلَّحة يبقون سنواتٍ في الجنوب بغير غيارٍ يَستَبدِلُ واحداً بآخر أو مجموعة بمجموعة، فلا يَعرِفُ أحدهُم شيئاً عن مصائر أُسَرِهِم فينقطعُ بلا أملٍ سِوَى أُفُق الحرب التي لا تنتهي.

وإذ اضطربت الأحوال في القيادة المركزيَّة بالقيادة العامّة تجلَّى ذلك ليس في أحوال الجنود فقط، الذين يُقَدِّرُ الكثير منهم رُوحَ التطوُّع والإقدام والمثابرة التي شَهِدَها في المجاهدين، لكن في تَذَمُّر فئات الضباط وانتقادِهِم لقيادة الجيش وشَكواهُم من شدَّة تميُّز

المجاهدين وتمييزهم، يتحدَّى بعضهم قيادته ساخراً أو يتصدَّى لعُضوِ مجلس الثورة الذي كان يُشرِفُ على الحرب ويَتَوَاجَدُ دائماً على جَبَهَات القتال وقيادات الوُحدات في المُدُن الكُبرى، ويتسابق الناس في التقرُّب إليه في ظاهرةٍ أخرى من ظواهر الجهاد والجيش في الجنوب، كما قد يتداول الضُبَّاط مع المجاهدين صراحةً أحوال القيادة العامَّة ويشكون إليهم حالَ الجيش لا سيَّما الجنود، وينتقدون لهم امتيازاتهم[٦].

إزاء تعاظُم جبهات القتال وكثافة العمليات وتراجُع الدوافع المعنويَّة للقتال وسط جنود القُوَّات المسلَّحة، كان المجاهدون دائماً رهن إشارة الاستنفار يتدفَّقون بالمئات لمسارح العمليَّات أغلبهُم طُلاَّبٌ لم يتلقوا الحد الأدنى من التدريب، ولكنهم ''يُرفَعُون'' بالطائرات إلى جُوبا ليَندَغِمُوا فوراً في القتال بعد تدريبٍ محدود على مرمى حجرٍ من المعارك الحامية المتوالية، ثم ليُعلَنَ الانتصارُ وقد استُشهِدَ أكثرُ من ثُلُثَي المقاتلين في المعركة من القُوَّات المسلَّحة ومن المجاهدين (نحو ٧٥٪ متوسِّط الخسائر البشريَّة في عمليات ''صَيْف العُبُور الثانية'')، ولتبدو المعركة أكثر عسكريَّة أو أخلاقيَّة من جانب الجيش الشعبي الذي يُخطِّطُ بدقَّة ويختارُ نقاطَ الهُجوم مستعملاً الآليات لتقليل الخسائر البشريَّة، ولتشتهر بين ضُبَّاط الصَّف والجنود مقولاتٌ مثل: «**الحديد مُرتاح.. والجيش يموت**».

رغم تراجُع روحِ القتال ودوافعه لدى جنود القُوَّات المسلَّحة، فقد ظلوا يقودون العمليات بمستوىً مشرِّف من المهنيَّة والاحتراف، يدرُسُون العمليَّة بدقة ويُخطِّطون للهُجوم والانسحاب ويختارون طُرُقَه ومَواقِيتَه، لكن مع تزايُدِ الانتقادات لأداء الجيش الرسمي وقياداته في مناطق العمليَّات، وبُطئِهم وتطاوُل ارتكازهم في المُدُن والطُّرُق الآمنة، ثم تسرُّب الرِّيَبِ نحوهُم من جرَّاء بعض الظواهر والتصرُّفات والهمس الجهير باتهامات ''الاختراق'' و''الطابور الخامس'' مُنذُ الهُجوم على جُوبا، الذي كادَ أن يذهَبَ بانتصاراتِ ''صَيْف العُبُور الأولى''، إذ أوشكت المدينة أن تسقُط في يد الجيش الشعبي، ومع فوضى إمارات المجاهدين، إذ أصبَحَ الجهاد ميداناً آخر لأمراض النجوميَّة والبطولة المُستَشرِيَة في النُّخبة الإسلاميَّة الخُرطوميَّة؛ إزاء كل تلك الأوضاع، بدأت عمليَّاتٌ

(٦) شهدت عمليات "صيف العبور الثانية" تمرداً محدوداً للطيارين العسكريين احتجاجاً على انتقادهم من قبل القيادة العامة وتدخل العميد الفاتح عروة - الذي كانوا يعتبرونه سياسياً وليس عسكرياً- في صميم العمليات العسكرية، ويستمد قوته من وضع عضو مجلس الثورة الرائد إبراهيم شمس الدين، الذي يمثل بدوره ظاهرة خارج أطر التراتب المعهود للجيش. ثم حادثة طائرة "سي ١٣٠" هيركيوليز التي استشهدت على متنها سرية كاملة فيها (٥) ضباط و(١٢٦) ضابط صف وجندي، ولم ينجُ إلا ضابط صف أكدت شهادته أن الطائرة سقطت بخطأ واضح من الطيار الذي دُفِعَ بالأمر للسفر ليلاً والهبوط في جوبا دون أن يكون المطار مهيَّأً لذلك، وقد كان السفر بقرار سياسي من العسكريين السياسيين، دون علم شعبة العمليات بالقيادة العامة. وأخيراً الأزمة بين قائد المحور الخطر في عمليات "صيف العبور ٢" «محور سندروا» مع نائب رئيس الأركان للعمليات.. وغير ذلك كثير.

خالصة للمجاهدين دون إشرافٍ من الجيش وخاصَّة من جهاز الأمن، الذي ظلَّ موصولاً دائماً بمسارِحِ العمليَّات تتحيَّن قيادته النخبويَّة الفُرص ليكون لها سهمها الخالص، فأعدَّت كتائب خاصَّة لقيادتها (كتيبة الخضراء الأولى التي شاركت فيها أسماء كبيرة من نخبة الحركة الإسلاميَّة، ثم الخضراء الثانية التي كانت كلها من الجهاز، ثم إلى الخضراء الرابعة التي عادت لتكون من المجاهدين، فالسادسة، إلخ..)، فمع تزايُد رُوح المُفاصلة بين الجيش والمجاهدين وتراجع الدور المِهَني الاحترافي في تخطيط العمليَّات، تطوَّر الهجوم ليكون عشوائياً بغير دراسة، ولتَشهَدَ نهاية صَيْف العُبُور الثانية المعرك الأشرس في أعالي النيل، وليدفع جهاز الأمن ببضع مئاتٍ استُشهِدُوا جميعاً على مشارف منطقة شَالي ١٩٩٧، فيهم نحو بضع عشرات من خالص ضبَّاط الإسلاميين، ولِيَنسَحِب بضعة عشر دون تأمينٍ للإمداد، الذي تضعه خُطَطُ القُوَّات المسلَّحة عنصُراً أساسياً في خُطَّة العمليَّات وتنفيذها.

لكن مهما تكُن كثافة العمليَّات واضطرابُ الساحة وفوضاها، فقد جاءت نماذج من المجاهدين قدَّموا مثالاً للتعايُش الإنساني بين المتواطنين في قُطرٍ واحد، ثم لقُدوَة الإسلام ومثاله الذي لا يأمُرُ بالجهاد إلاَّ دفاعاً، فإذا وَضَعَت الحرب أوزارها عادوا جميعاً يُعمِّرُون الحياة إخواناً متضامنين، فقد شَهِدَت ولاية بحر الغزال أفواجاً من طُلاَّب جامعة الجزيرة، انحاز إليهم عشراتٌ من المهندسين والمعلِّمين والأطباء وغيرهم، نشطوا جميعاً لإعمار الحياة المدنيَّة في "وَاو"، إذ أصلَحَ المهندسون شبكة المياه والكهرباء بعد سنواتٍ من العطالة، كما أعاد الأطباء الحياة للمراكز الطبيَّة في المُستشفيات، وافتتحوا أخرى جديدة لأوَّل مرة، وانتشر المُعلمون في المدارس واستغلوا فصولها لمحو أميَّة المواطنين من أهل الجنوب مدى عام دراسيٍّ كامل، وبثَّت الإذاعة برامجها وسُمِعَ صوتُها بعد صمتٍ طويل، وعَمَرَت خاصَّة العلاقات الإنسانيَّة بين طُلاَّب المجاهدين وطُلاَّب وطالبات جامعة بحر الغزال، وابتكروا برامج الترفيه في الرحلات والمسابقات لمختلف وجوه الثقافة والفن، وشَخَصَت صورةٌ أخرى غير الصورة النمطيَّة للعربي والمُسلِم التي مثَّلها الجيش والتُجَّار، فإذا غادروا كانت حفلاتُ الوداع ووعُود التواصُل واللقاء، وسَرَت بين المجاهدين أنفُسهم روحٌ إنسانيَّة وثقافة غير تلك التي جَعَلَت بيئة الجهاد تقليديَّة خاملة، وبَدَت الوحدة ممكنة وجاذبة.

******

كان للأمين العام تدخُلٌ مباشرٌ وأساسيٌّ في فُصُول قصَّة الحَرب (جِهَاد المرأة)، فقد

استوعَبَت معسكراتُ الدفاع فصائلهن الخاصَّة ضِمنَ فكرة ضبط المجتمع أو تفعيله أو إعداده للأسوأ من النَازِلات. ولكن أشواقَهُن الخاصَّة أن يقُمْنَ شقائِقَ للرجال حيثُما تيسَّر لهُن لا حَجْرَ ولا حاجز عن أيِّ ميدان، وأن تستوي حياة المجتمع المؤمن مستقيمةً باستواء جناحَيه وتَعمَر بهما في سائر المجالات؛ كانت تستدعي قومةً خاصَّة إذا أرادت النساء أن يخْرُجنَ غازياتٍ في ميادين القتال هِجرَةً وغربةً وتعرُّضاً للمخاطر. وإذ أصبح الجهادُ والاستشهادُ حاضراً شريفَ السيرة في تلك المرحلة، تطلَّعت الكثيرات للمُشاركة من عامة النساء، وخاصَّة اللائي لم يشهَدنَ سوى عُهُود الحريَّة ثم عهد التمكين ولم يشهَدنَ مُدافَعَات مايو ولا حتى مُعارَضَة الأحزاب.

والحقُّ أن المرأة في مناطق التماس قد شَهِدَت قسطاً محدوداً من التدريب العسكري مع قبائلهن قبل قيام الدفاع الشعبي، ولكن نحو نهاية العام ١٩٩٠م قامت مُنسقيَّة خاصَّة للمرأة بعد تزايُد نشاطها في ميدان الجِهَاد، إذ شَهِدَ أوَّل العام معسكرٌ لتدريب المرأة المجاهدة وانفتح معسكر "خُور عُمَر" لاستقبال المجاهدات، مزامناً للمُعسكَر الأوَّل للرجال في "القِطِينَة"، بلغ عددهُن نحو (٤٥٠) مجاهدة من كل فئات النساء في المجتمع وإن غَلَبَ عليهن الطالبات. ثم ليتخرَّجنَ في ذات الوقت مع الرجال، تزدانُ بمواكِبِهن مشاهدُ عيدِ الثورة الأوَّل، ولا رَيْبَ أن تلك الصورة قد اشتهَرَت في الآفاق تدمَغُ الثورة الجديدة بالأصوليَّة والإرهاب.

أعقب المُعسكَرَ الأوَّل انطلاقُ القافلة الأولى نحو مناطق العمليَّات الأبعد في الاستوائيَّة، أعِدَّت بجهدٍ خاص وبلغت مدينة جُوبا وحَمَلَت للمُجاهدين زاداً وكساءً، يستشعِرنَ أنَّهُنَّ بعضاً من الروح الجديدة التي انبثَّت في تلك الأنحاء، ولدى تصاعُد أصوات المعارضة وتأسيس المُنَسَّقيَّة تجلَّت القضيَّة الأولى "تأصيلُ جِهادِ المرأة"، إذ أن أغلَبَ الاعتراض جاء من الصفِّ الإسلامي المدني والعسكري ثم من داخل مؤسَّسة الدفاعِ الشعبي نفسها(٧).

فورَ نجاح الاجتهاد التأصيلي عَبرَ مُنتدَى "المرأة والبُندُقِيَّة"، الذي تُدُوِلت فيه ثلاثُ أوراق شارَكَ فيها الأمينُ العام شخصياً بمحاضرةٍ حول "تأصيلُ جِهَاد المرأة"، ثم قدَّمَت قائدة نسائية (د. سُمَيَّة أبوكَشَوَّة) ورقة التجارُب العالميَّة لمشاركة المرأة في القتال. وفور إزالة اللَبس والاعتراض شارَكَت أوَّل مجموعة من المجَاهِدَات في العام ١٩٩٢ بانضمامِهنَ

---

(٧) قامت القافلة الأولى بجهد أساسي شخصي من د. لبابة الفضل، وتصاعدت أقوى الاعتراضات من الشيخ الشهيد أحمد محجوب حاج نور، ثم من قائد قوات الدفاع الشعبي العميد العباس، الذي حاول أن يحصر دورها داخل ولاية الخرطوم.

إلى مجاهدي عمليَّة "العاديات ضبحاً" وشوهِدنَ على ظُهورِ الخيل في منطقة "بَحر العَرَب"، ثم ليقُمنَ بدورٍ أساسي في تأمين مدينة ملَكَال إبان ما عُرِف بـ"ضربة الكُجُور"، ثم شَهِدَ مُنتصفُ العام ١٩٩٣ تسيير أربع مجموعاتٍ من المجاهدات للمشاركة في العمليَّات العسكريَّة بعد جهدٍ كبيرٍ بُذِلَ لإقناع الأجهزة التنظيميَّة، حتى شارَكنَ بالفعل في الطريق من وَاو إلى أويل وتأمينه وفتحه لمرور القِطَار، ثم مجموعة بمنطقة الجِبَالِ الشرقيَّة بجنوب كُردُفان، وقد لحِقَت بهِن مجموعة محليَّة من النساء قاتَلنَ بالأسلحة الخفيفة والثقيلة، وسَلَكَت المجموعة الثالثة الطريق إلى مَلُّوط بأعالي النيل، وسِرنَ من مَلَكَال إلى الرَّنك مشياً على الأقدام، أما المجموعة الرابعة المقاتلة فقد بَلَغَت حتى "خُور يابُوس" في النيل الأزرق(٨).

مع تطوُّر تدريب المجاهدين نحو الأسلحة الدقيقة، تطوَّر تدريبُ المرأة على الأسلحة فيما عُرِفَ بـ"دَورات أم حرام" الأولى والثانية، و"أم سِنَان" الأولى والثانية، ورافقت غالب اللواءات المتحرِّكة نحو مناطق العمليَّات مجموعت من ٢٠ إلى ٤٠ مجاهدة، قد يمكُثن بضعة أشهُرٍ قبل أن يعُدنَ للخرطوم ويُستَبدَلنَ بمجموعةٍ أخرى إلاَّ أن العمل ذا الوقع الأكبر كان في جُهودِهِن في الطِّب والتعليم وتدريب النساء في تلك المناطق وتعبئة المجتمع في حملات "زاد المجُاهد" التي شملت كل الولايات نزولاً إلى المحليات، وذلك قبل أن تنجح الجُهود المعارضة لجِهادِهِنَّ في تقليص مُنَسقِيَّ المرأة من بضع وعشرين إلى ثلاث مُنسِّقات، ولتستثمر تلك الطاقة الفائضة في مؤسَّساتٍ موصولة بالجهاد، شأن "سلام العِزَّة" و"مُؤسَّسة رُفَيْدَة" وإنشاء مصنع القديد.

اتصلَ جهادُ المرأة كذلك بجُملة إصلاح وضع النساء في القُوَّات المسلَّحة والقُوَّات النظاميَّة الأخرى حيث أثمر إصلاحاً سريعاً في تلك المؤسَّسات، إذ سُرعان ما اقتنع القائد العام رئيسُ الجمهوريَّة، فتجاوزت المرأة سقف الرُّتبِ العسكريَّة الأدنى للرُّتَبِ الأعلى لا تجِدُّها إلا كفاءتها، فبلغت رُتبة العميد في أولى خُطُوات الإصلاح الذي مضى ميسوراً، على غير سيرة الإصلاح الأهم لأصول المؤسَّسة العسكريَّة نفسها، وتلك قصَّة نعودُ إليها.

*****

اتصلت نخبة الحركة الإسلاميَّة وطُلاَّبها بفئاتٍ أخرى من جُذور المجتمع عند ذات

---

(٨) تعاقب على القيادة العسكرية لتلك المناطق ثلاثة من أكثر ضباط الجيش حماساً لمشاركة المرأة، هم: العقيد الجنيد الأحمر، ثم العميد الشهيد شنان وأخيراً المقدم الشهيد مركزو. بينما ظلت منطقة الاستوائية محرمة على جهاد المرأة بموجب تعليمات مشدَّدة من عضو مجلس قيادة الثورة الرائد إبراهيم شمس الدين، رغم الموقف الرسمي الذي اعتمده "مؤتمر المرأة والبندقية".

ساحة الجهاد، قبائل التماس في غرب وجنوب كردفان، والتي يعودُ إليها منشأ فكرة الدفاع الشعبي أوَّل الأمر أواخر العهد الحزبي، فإذ ظلوا موصولين مدى تاريخهم بالجنوب في رحلتهم مع ماشيتهم، يبلُغون أقصى حدوده مع يوغندا في شُهور الصيف إذ تجِفُّ المياه في مناطقهم الغربيَّة وتبقى مخضرَّة بالكلأ هنالك، لكن واقع الحرب وحركة الجيش الشعبي منذ مُنتَصَف الثمانين أفسَدَت تلك الوَشائِج، وأهَاجَت مشاعر أخرى عنصريَّة تصفويَّة، بغير ضابطٍ أو تَقوَى من الله. لكنهُم إذ فتحوا الطريق المُهم نحو بحر الغزال، التي حُوصرت مقطوعة من المَدَد لعدَّة أشهُر، ثم أمَّنوا السكَّة الحديدية للقطار حتى بلغ أَوِيل ثم وَاو، وقد ظلَّ معطَّلاً منذ ١٩٨٦، مُسجِّلين انتصاراً باهراً لُمبَتَدأ صَيْف العُبُور، يبلُغُون أهدافهم على ظُهُور جيادهم، سابقين لحركة الجيش الوئيدة على ذلك المحور، ويُدمِّرون معسكرات الجيش الشعبي على الطريق، استوعبوا المُباينة في الثقافة والسلوك بينهم وبين المجاهدين من صفوف الحركة الإسلاميَّة، ومهما بَدَت بعضُ تصرُّفاتهم وتعبيراتهم في الحياة صادمةً لأولئك، قدروا إقدامهم وشجاعتهم وفيهم كثيرٌ من سابق جنود القُوَّات المسلَّحة، نفعوا المعارك بخبرتهم في السلاح والتكتيك العسكري ومعرفة الطريق. وبالمُقابل لم تُهَيِّئ تلك العلاقة المباشرة لنُخبَة الحركة الإسلاميَّة مع مكوِّنٍ مُهِم في مجتمع أهل السودان أن يطوِّروا معرفةً عنه وليُنذِروا قومَهُم إذا رجعوا إليهم من فِتَن العُنصُريَّة والشقاق التي تتربَّص بمستقبل البلاد، أو ابتكار مشاريع التعايُش لتغيير المجتمع أو إعادة بنائه كما كانت تدعو وتُثَبِّت أهداف الحركة الإسلاميَّة العُظمى. والحقُّ أن شيئاً من ذلك لم يكُن من هُموم الجهاد ساعة انطلاقه واحتدامه، رغم نوايا صادقة عبَّرت عنها ثلَّة من المجاهدين على تخوم الشرق، أن يبقوا هنالك حيث رابطوا للجهاد ويُصاهِروا أهل المنطقة وينفعوا دعوة الإسلام وهُم بعضٌ من نسيج المجتمع لا وافدين عليه، على سُنَّة الدُّعاة الذين حَمَلوا الإسلام للسودان مُهاجِرين ولكنَّهُم استقرُّوا فيه مُواطِنين، إلاَّ أن قيادة الجهاد العسكريَّة الإسلاميَّة سارَعَت لوأد مشروعِهِم، وصَرَفَتهُم راشدين إلى الشمال.

أتاحَ الجهاد كذلك للمُجاهِدين معرفة أخرى لفئة من الداخل الأفريقي نحو الجنوب، "جَيْشُ الرَّب" الأوغندي، الذي رأوه إلى جانبهم يُقاتِلُ في ضراوةٍ لا تُضاهَى، زَوجَي المقاتلين رجالاً ونساءً كُلُّهُم أشدَّاء، لكنهُم يحمِلون كذلك أهدافاً يُقاتِلُون من أجلها، لا علاقة لها بأهداف الجيش أو المجاهدين، قد يُهاجِمُون يبتغون محض الغنيمة التي تَسُدُّ رَمَقَهم وحاجَتَهم، لكنَّهُم شديدو الانضباط لخُطَّة قيادتهم وتعليماتها، مُنَظَّمون لا يتركون جريحاً بغير إخلاء وإن فَعَلَ ذلك المجُاهدون، ولا خطأ من جانِبِهم بغيرِ سُؤالٍ

ومحاسبة ثم إنزال العُقوبات مهما يكُن المخطئ، ثم هم أوفياءٌ إذا امتدَّت عِشرَتهم في أحراش الاستوائيَّة مع الجيش والمجُاهدين يُقاتِلون إلى جانبهم وِفقَ خُطَّتِهِم مهما تكُن التكاليف.

عَمَرت كذلك جبهةُ الحرب بأعدادٍ من مُجاهِدِي الدفاع الشعبي وَفَدوا من مناطق دارفور المختلفة، من القبائل الأفريقيَّة والعربيَّة، أفلَحَت جُهُودُ عناصر الحركة الإسلاميّة من تلك الأنحاء في استنفارهم بأعدادٍ كبيرة، ليُشاركوا في الجهاد نحو الجنوب أو الشرق، مثَّلوا كذلك صفوةً أخرى منفصلةً بذاتها، لا يُمثِّلون في إمارات المجُاهدين العديدة إلا إذا كانوا طُلاَّباً في الجامعات أو جاؤوا عَبرَ المؤسَّسات الحُكوميَّة، بينما يبقى سوادُهُم الأعظم محصوراً إلى جماعته بغير صجَّة أو إعلان، يمتازون عن الجيش بطعامِهِم وزِيِّهِم وحتى ببرامجهم التي يُتَوَخَّى فيها مخاطَبَتُهُم عَبرَ قادة الحركة الإسلاميَّة الذين ينتمون إليهِم جهةً أو عرقاً، في إضافةٍ أخرى لصُور التمايُز والتَّفرِقَة التي برَزَت ظاهرةً يومئذٍ على صَفَحات الجِهَاد.

*****

نحو العام ١٩٩٧م حَمِيَ الجهادُ في الجنوب والشرق في جولةٍ أخرى أشدُّ ضراوةً من سوابقها، فقد استعادت الحركة الشعبيَّة لتحرير السودان وجيشُها الشعبي كثيراً من المواقع والمُدُن، بعد أن تجاوزت أزمة الانشقاق لتَزَوَّد بمددٍ خارجيٍ جديد وبعزيمةٍ جديدةٍ للقتال، فورَ توقيع ميثاق الخُرطوم للسلام واتفاقيَّة الخُرطوم.

وإذ قلَّت أعدادُ القُوَّات الرسميَّة للجيش السوداني وانحَسَرَت دوافعُها للقتال، عَادَ المجاهدون مرَّة أخرى ليملأوا الساحات في أعدادٍ أكبر ولكن في تشعُّبٍ أكثف وإمارات متباينة، وصِراعَاتٍ تطوَّرت مع الوقت لتبرُز أشد حدَّة بين مؤسَّسات الحركة الإسلاميّة الخالصة الموصولة بالجِهَاد، كلٌ يُريدُ أن يحتكِرَ المجاهدين. ومع إعلانِ القيادة العسكريَّة السياسيَّة لفكرة "الرَّبط" بالعدد المطلوب من المجاهدين لسَدِّ ثغرات جَبَهَات القتال في ولايات الجنوب كافة ثم في الشرق (النيل الأزرق)، تنافَسَ قِطاعُ الطُلاَّب مع قيادة الدِّفاع الشَّعبي ومع جهاز الأمن لتوفير العَدَد لمطلوب، ولكن كذلك لاحتكارِهِ واستثمار انتصاراته.

وإذ تطاوَلَ عهدُ الجِهَاد بكثيرٍ من المجُاهدين الطُلاَّب ورابَطَ بعضُهُم سنواتٍ دون جامعته وأهله، مُضَحِّياً في تفانٍ وعزيمة بمستقبله الأكاديمي مهما تكُن رجاءاتُ الأسرة والأهل، ثم هيَّأ لهُم إخلاصُهُم وعُمرُهُم الشاب اكتساب خِبرةٍ أكبر من سَنَوَاتِهِم في

الحياة، ومعرفةً بالحرب والعسكريَّة ودراية عميقة بمنطق العمليّات، كما ألهمتهم مُثُل الشهادة لوضيئة التي قدَّمها زملاؤهُم إلى جانبِهِم في المعارك، كلُّ ذلك دفعهُم إلى مواجهةٍ مع نُظُم الجيش الرسمي إذ لا تُناسِبُ روحَهُم الوثَّابة وسُلُوكهم الحُر، وإذ خَسِرُوا أنفساً عزيزةً عليهم كانوا يُعِدُّونها لقيادة عمل الطُلاَّب ثم لقيادة الحركة الإسلاميَّة ذاتها، تعالى النقدُ لخُطَطِ المعارك والإقحام الفَوضَوِي لهُم من قِبَلِ القيادة العسكريَّة للثورة، فمضوا بالعشرات في كمائن الجيش الشعبي وفي القَصف المِدفَعِي وفي معارك المُقاتَلَة المُباشرة ثم بالضياعِ في الغابات المتشابكة والطُرُقِ الوَعِرَة وأخيراً بالاضطراب في الإعلان عن الجرحى والشهداء والمفقودين[٩].

وبِشِدَّة العمليات في الهُجوم الأوغندي نحو الميل (٤٠) من مدينة جُوبا ومواجهة المجُاهِدين وحدَهُم للدبَّابات الأوغنديَّة حتى اشتهروا بين المجُاهِدين وفي الإعلام بِوَصفِ "الدَّبَّابين". استُشهِدَت الأسماءُ الأشهَر والأشَدُّ وقعاً في قيادة المجُاهدين الطُلاَّب، فمثَّلت عملية الميل الأربعين ذروة الجهاد والاستشهاد، كما مثلت ذروة المباينة بين منهجين في الحرب وعقيدتين في القتال، فقد انحشد لها بضع عشرات من صفوة قادة المجاهدين الطلاب تهيأوا في معسكر خاص يستعدون لمعارك بدت نذرها وشيكة في مناطق جنوب النيل الأزرق، ولكنهم ما أن بلغوا تلك الجبهة حتى تلقوا نذراً أخرى أشد خطراً عن حصار آخر وشيك للمدينة الأكبر جوبا يهدِّدها بالسقوط في قبضة الجيش الشعبي، وحُملوا من فورهم إلى جبهة الجنوب وقد اشتدَّت فيها المجُانبة بين قادتهم وقادة الجيش خلافاً بيناً يريد أن يتحصَّن في المدينة وفقاً لرأي قيادة المنطقة العسكريَّة، ورفضاً مُتَحِفِّزاً من قادة المجاهدين يرى أن الانتظار تقاعس مُريع يُسْلِمُ المدينة للعدو بعد أن تقدَم يحتل الأرض من الميل ١٧٠ حتى بلغ الأربعين. لكن المدافعة والخلاف سرعان ما بدّدت أصوات المدرعات الأوغندية علي ذات المحور ولتتقدم الصفوة القائدة جميعاً من المجاهدين لحظة وصولها تقاتل كأنها بغير سلاح إلا من مَدَدٍ يتعثَّر في الوصول إليهم من زملائهم ومن بعض الضباط، فمضوا جميعاً مستشهدين في الملحمة الأعظم إلا من بضع بقوا أحياء يشهدون على قصة المعركة. بل إن الإبادة التي تأتي على كل المقاتلين في المعركة قد تكرَّرت على نحوٍ أشَد في الأمطار الغزيرة، مما كان عليه الحالُ في "كتائب الخضراء" (الأولى والثانية والثالثة والرابعة).

(٩) ما زالت إلى اليوم مجهولة مصائر أعداد مقدرة من المجاهدين الطلاب الذي دخلوا المعارك ولم يحدد بالضبط حين اختفائهم. كما أعلن البعض شهداء ليعودوا أحياء من ضياع الغابات.

تكرَّرت ذاتُ المَشاهِد والآثار نحو النصف الثاني من العام ١٩٩٨م باستعادة الجيش الشعبي لمناطق في أعالي النيل، ومع تطوُّر العمل في إنشاءات البترول والحاجة المُلِحَّة لتأمينها تطلُّعاً لوَعدِهَا القريب بإنتاجِ النِفْط من آبارٍ في تلك المناطق، تدافَعَ المجُاهدون استجابةً لاستنفارات قطاع الطُلاَّب وجهاز الأمن وقادة الأمن الشعبي ثم قادة الاستخبارات العسكريَّة الرسميَّة، تتوخَّى كُلُّها عَدَدَ الرَّبط من الطُلاَّب الذي يُمكِنُ أن تُواجِهَ به مُباغتاتِ تلك المنطقة المُهِمَّة. وباشتداد المعارك في "كُجُوزِيَّة" و"البُونج" في شهر رمضان ظَهَرَت سافرةً اختراقاتُ ما يُعرَفُ بـ"الطابور الخامس" في خِضَمِّ المعارك، إذ فوجِئ المجُاهدون والجيش بهجومٍ مُباغِتٍ كاسِح للجيش الشعبي، ثم تصفية للمُجاهِدين من داخل صندوقهم القتالي وأثناء تنفيذ الانسحابِ من المعركة. ورغم أنباء الانتصار الكبير الذي حقَّقه المجاهدون في تلك المنطقة بقيادة صغار الضباط الإسلاميين للمعارك، أسفَرَت الاشتباكات عن شُبهاتٍ كثيفةٍ للاختراق المُضاد في عُمقِ مُعَسكَر المجُاهدين والجيش، وباستثناء قُوَّات مناطق التماس "المَرَاحِيل" التي شارَكَت في المعارك من جيادها وأعداد قليلة من حَرَسِ البترول أضيفوا بواسطة عُضو مجلس الثورة، باستثناء أولئك أضحَت المنطقة كذلك ثكنةً لنشاط استخباراتي مُتشابِك لرَصدِ ظاهرة الاختراق (الاستخبارات العسكريَّة والأمنُ الرسمي والأمنُ الشعبي)، ثم أنباءٌ متواترةٌ عن تصفياتٍ بلا مُحاكمات، وعن التعذيب، وعن المقابر الجماعيَّة، ثم إحصَاءُ القتى بعد المعركة، ونَوعُ الإصابات المُنبِئَة عن نَمَط التصويب المشبوه، وباستشهاد أعدادٍ من المجُاهدين من جرَّاء النزيف، ينتظرون الإخلاء بطائرة عموديَّة لسلاح الطيران، تصاعَدَت الشَّكوى من القُوَّات المسلَّحة وتزَايَدَ الشعور بفوضى الجهاد، ثم لتُطرَح لأوَّل مرَّة أسئلة: مَن المسؤول عن الجهاد؟ ومَن يُراجِع العمليات ويُحاسِب عن الأخطاء؟ ولتَشهَدَ الخرطوم أوَّل مؤتمرٍ عن الجهاد، تبنَّته إحدى المؤسَّسات الموصولة بعمليَّاته ومسارحه المختلفة، مهما احتدَّت فيه الآراء وتصاعَدَت الاحتِجَاجات، وبَلَغَت بالنَّقدِ المرير قيادة الحركة والدولة العُليا في مركز السلطة العاصِمِي، فإن جوهرَ المشكلة ظلَّ مُستَعصِياً عن المَسّ، إذ اتَّصل منذ حينٍ بجوهر الإصلاح لجُملة مسار الإنقاذ، وذلك مما يَعجَزُ عنه أولئِك المؤتمِرُون.

*****

اتصلت مداولة الجهاد ونَجَازَتِه وتصويره في مداولةٍ أخرى أشدُّ حساسيَّةً وإرهافاً (إصلاحُ القُوَّات المسلَّحة) وفقاً لخُطة الحركة الإسلاميَّة الاستراتيجيَّة وتأصيلها لسائر وجوه الحياة على الإسلام. فمُنذُ أوَّل الخُطة العُظمي، ومع مُشارَكَة قادة الحركة الإسلاميَّة

في النظام المايوي بعد المُصالحة الوطنيَّة (١٩٧٧-١٩٨٥)، بَسَطَ الأمينُ العام رُؤيته لإصلاح نظام الجيش ومؤسَّسته القُوَّات المسلَّحة وعلاقتها بالمجتمع، ضِمنَ تأصيله لرُؤيةٍ إسلاميَّةٍ في المؤسَّسات الناظِمَة لدولةٍ إسلاميَّةٍ حديثة. ولَئِن أسَّس الإسلام حياة المُؤمِن على التوحيد لا يُفاصِلُ بين أخلاق الحياة العامَّة وأخلاق الحياة الخاصَّة، ولكن يُسَلِّمهم معاً إلى الله سُبحانَهُ وتعالى، كانت الرؤية ألاَّ تنهض لفروض الكفاية فئةٌ مخصوصة تمحض حياتها لها ثم لا شأن لها بسائر الحياة، فمهما يَنهَضُ جيشٌ مخصوص بواجب الحماية عن المجتمع ويَدفَعُ عنه العُدوان والتمرُّد، ينبغي أن يكون جُنودُهُ وضُبَّاطهُ موصولين بسائر وُجُوه الحياة في المجتمع الذي هُم بعضٌ منه، فالأوفق ألاَّ تنصرف فئةٌ للعمل العسكري تُتقِنُ عُلُومَه وسلاحَه فحَسْب ولكن تتكاملُ حَيَوَاتهم مدنيَّة وعسكريَّة، إذا اتصلت الحياة بأحدهم في نُظُم الجيش ورُتَبِه وميادينه وثكناته يعودُ بعد بِضعِ سنواتٍ ليقومَ في المجُتمع عاملاً كذلك في أيِّ وجهٍ يُناسِبُ استعداده وخبرته، ريثما يعودُ إلى مؤسَّسة الجُنديَّة فيفرَغُ للعمل في المجتمع آخرون.

تداوَلَت رُؤى الإصلاح كذلك في عقيدة القتال لدَى المؤسَّسة الوطنيَّة الموروثة منذ الاستعمار وثقافة منسُوبيها، ثم في مناهِج الدراسة والتأهيل في الكُليَّة الحربيَّة أو معاهد القيادة ودوراتها التدريبيَّة أو كُليَّة الأركان وأكاديميَّة شؤون الاستراتيجيَّة والحرب، إذ لابد من ثورةٍ في المناهج نحو الأصالة الإسلاميَّة وفي تأهيل الطالب أو الضابط بمقاصِدِ الحياة في المجتمع حتى يَنشَطَ في العِلمِ والرياضة والتدريب، لا ينشُدُ القُوَّة إلا مُوحَّدَةً لأهداف مجتمع المُؤمِنين وقيمه في الأُخُوَّة والتعاوُن والشُّورى، فلا ينقطع بحياةٍ عسكريَّة لا تعرفُ السياسة أو الاقتصاد أو العمل الاجتماعي حتى يعود في خدمة المعاش لا يدري أين تستوعبه الحياة بل يتداول بحياته في كُل ذلك يُوظِّف المجتمعُ خِبراتِهِ على نحو ما سَبَقَ ذكرُه. كما اتصلت المُداولة حول تصاعُدِ الرُّتَبِ العسكريَّة وعددها ومواقِعِهَا في الهيكل الخاص بالقُوَّات المسلَّحة وفي الهيكل العام للدولة، إذ جَمَدَت وتقدَّست مهما تكن مُعيقةً لمدى العُمر وموصولة بثقافةٍ وقيمٍ تحتاجُ للمراجعة أو للثورة.

لكن إذ ثارَت القيادة العسكريَّة الإسلاميَّة على أصول بناء الدولة انقلاباً عطَّل الدُّستور وبدَّل القوانين، وشَرَعَت تُوافِقُ على كل إصلاحٍ قرَّرته قيادة الحركة في سائِرِ وُجوه الحياة، تمرَّدت مُبكِّراً على كل إصلاحٍ للجيش، وظلَّ رئيسُ الثورة العسكري يُعبِّرُ عن نسبته للقُوَّات المسلَّحة ومسؤوليته عنها في مناسباتٍ كثيرة كأنه لا يرأسُ كُل الحياة وفقاً لواجِبِه الدُّستوري، وإذ تعسَّر عليه التخلِّي عن زِيِّه العسكري مُنذُ الدعوة في أوَّل

الثورة إلى حَلِّ مجلس الثورة، ظَهَرَت لأوَّل مرَّة عَصَبيَّةٌ لمؤسَّسةٍ تفوقُ عصبيَّة الحركة الإسلاميَّة، قبل أن تتكاثَرَ فيها بعد أنواعٌ أخرى من العَصَبيَّات داخل صفّ الحركة الإسلاميَّة، ثم إصراره مَدَى عشريَّة الثورة وبعد إجازة الدُّستور، على الاحتفاظ برُتبَتِهِ العسكريَّة وزيِّها ومَنصِب رئيس الجُمهوريَّة ومَنصِب القائد العام، ليكون رئيساً في سنوات الثورة الأولى لهيأة القيادة، ثم الاحتفاظ بعضويَّةٍ في حزبه فضلاً عن رئاسته له، ورئسة هَيأتِهِ القياديَّة في التعديلات التي حملتها لاحقاً "مُذكِّرَةُ العَشَرَة"، بل إنَّ منصب القائد العام وضرورة فصلِهِ عن عُضويَّة هيأة القيادة في تفصيل التعديل الموجِب بالدُّستور لقانون القُوَّات المسلَّحة أصبَحَ حيثيَّة وموضوعاً للصراع نحو "المُفاصلة" في العام ١٩٩٩م.

ورغم أن الخُطة العامة للحركة نحو الإصلاح المُتَدَرِّج لمؤسَّسات الدولة كافة كان قد تَوَجَّه بالدَّفعِ لعناصر مُلتزِمَة إلى المناصب الأرفَع في المؤسَّسات ذات التَراتُبِ الصارِم والتقاليد الراسخة، شأن وزارة الخارجيَّة أو الماليَّة أو العدل، والتي مَضَت فيها عمليَّة التطعيم ميسورة في تلك الأجهزة، تَعَوَّقَت الخُطة في الجيش. فقد أُدخِلَت دُفعَةٌ من الخِرِّيجين أصحاب التخصُّصات إلى القُوَّات المسلَّحة ولكنها استُبقِيَت مُدَّة في الكليَّة الحربيَّة أطول مما يُعهَدُ في أعراف الجيش ضُبَّاطاً فنيين، ويُوضَعُ لهُم ذلك التقليد سقفاً دون تمام انتمائِهِم للمُؤسَّسة، ولكن تلك المجموعة إذ أكمَلَت تدريبها العسكري وتأهيلها الفنِّي كان قرارُ الحركة أن تُكتَبَ ساعة تخرُّجها ضِمنَ السِجِلِّ الرئيس العام للضُبَّاط، الذي لا يُمايِزُ بين أولئك وبين من يُسَمُّون حصراً ووضعاً بالفنيين. لكن القرار لم يمض كذلك ساعة التخرُّج بل حُصِرُوا وِفقاً للوائح المُؤسَّسة فنيين، عَصَبِيَّةٌ أخرى للمُؤسَّسة العسكريَّة من عسكريين في قيادة الثورة دون الرئيس، يُؤمنون كذلك بأن الجيش شأنٌ خاصٌّ بِهِم لا يخضعُ بالتمام لمُداوَلة القيادة شأنَ مُؤسَّسات الدولة كافة، أو هُم يخشون مدفوعين بوسَاوِس المدنيين الموصولين بهم في قيادة الحركة أنَّ دُخول العناصِر الإسلاميَّة الملتزمة إلى أعلى المؤسَّسة العسكريَّة قد يُهَدِّدُ تمام إحكام قبضتهم عليه، ويُزعِجُ الحال المُريح الذي أورثتهُ لهُم الثورة.

القرارُ الثاني الذي تعثَّر كذلك دون إمضاء، حصرُ قبول الضُبَّاط في الكليَّة الحربيَّة على الخريجين الجامعيين، إذ تكثَّفت أعدادُهُم منذ أوَّل الثورة وبعد ثورة التعليم، فهم يُناسبون بما نضجت أعمارُهُم وبما كَسِبُوا من عِلمٍ وتجربةٍ في دراسة الجامعة وأروِقَة نشاطها وحياتها الاجتماعيَّة رؤيةَ الحركة في توحيد المجتمع دون عصبيَّة المِهَن أو مُشاقاة المدني والعسكري، ورَغمَ قرارٌ مماثل نُفِّذَ وطُبِّقَ فوراً على كليَّة الشرطة فإن قادة الجيش الذين أصبحوا في قيادة الحركة وقفوا يمنعون إضعاف العصبيَّة العسكريَّة ولو لِصلاَح

المجتمع كافة وشِفائِهِ من أدواء العصبيَّة، يُجادلون أن العسكريَّة لا يُناسِبُها إلا العُمرُ الأصغَر والجِسمُ الأطوَع للتدريب، ولو كان قراراً تأصيلياً يؤيِّده الأمينُ العام الذي اعتُبِرَت رُؤاهُ المماثلة الأخرى بمثابة سياسة استراتيجيَّة عُليا.

تداخَلَت كذلك الرُؤى والمواقف في الإعلام الموصول بالجِهَاد، إذ الكَتمُ والسِرُّ والخاص المحصور بعضُ أعراف الجيش وتقاليده، بينما الحركة الإسلاميَّة دعوةٌ وعلنٌ وانفتاحٌ وبلاغ، وقد نشأت غالِبُ أجيالها على أنهُم أصحابُ رسالةٍ لا تنفَكُّ عن الإعلام. فقامَ لأوَّلِ الثورة مكتبٌ محدود موصولٌ بمجلس الثورة يُغطِّي أنباء الجهاد، سُرعان ما تطوَّر إلى مؤسَّسة تُنتِجُ برنامجاً للتلفزيون، ولكنها لا تَتبَعُ لفَرعِ التوجيه المعنوي الذي تحصِرُ فيه القُوَّات المسلَّحة كل شؤون التعبئة والإعلام. ورغم أن التوجيه المعنوي منذ أوَّلِ الثورة كذلك ثَقُل أثره ووقعهُ داخل الجيش وخارجه بما لم يُعهَد منذ تأسيسه في العهد المايوي، إلاَّ أن "ساحات الفِدَاء" ظلَّت جِسماً خَارِجُه، يتَّصِلُ بذات ميدان عمله وِفقَ مناهِجَ في الأداء الإعلامي لم يَعهَدْها، فإذ مضى يُغطِّي أنباء المجَاهِدين والدفاع الشعبي ثارَت حساسيَّةٌ في القُوَّات المسلَّحة، وإذا غطَّى حركة الجيش ثارَت كذلك التقاليد العسكريَّة التي تُرتِّبَ حتى لإعلان أسماء الشهداء وِفقَ نُظُمٍ وضوابط إن لم تُرَاعَ كُلّها فإن روحها المتجذِّرة في الضَّبط والسريَّة تبقى سائدة، فقد تعلن أنباء تحرير المُدُن ويُحتَفَلُ بالنصر، لكنَّ سُقوطها لا يُذاع حتى يَسمَع الناسُ بتحريرها مرَّةً ثانيةً.

لكن مهما تحفَّظت التقاليد العسكريَّة على تغطية نشاط عسكري من قِبَل جهات مدنيَّة، واعتَرَتهُم مشاعر العصبيَّة والغيرة، فإن أعضاء الصف الملتزم للحركة من الضُبّاط وعلى رأسهم عُضوُ مجلس الثورة الأصغَر، بذلوا حمايةً لجُملة إعلام الجِهَاد الموصول بأجهزة الحركة الخاصة والإعلاميَّة. ومع حُمَّى الجِهَاد وتصاعُد صِيتِهِ وسُمعَتِهِ أصبَحَ إعلامُ الدفاع الشعبي ذا أثرٍ كبير ووقعٍ بالغ للتعبئة للجِهَاد أو لغيره من برامج الثورة، يجلسُ الملايين لمُتابَعَته أمسية كل جُمُعَةٍ، ولدى إعاداته المتعددة، ثم تُحفَظُ ذات البرامج وتُنشَرُ عبر أشرِطَة الفيديو في الجامعات وداخليَّات الطُلاَّب ومعسكرات الدِّفاع الشعبي، وقد تُرزَعُ بذات الكثافة في مهاجِرِ الاغتراب حيثُما وُجِدَ السودانيون يتولَّى ذلك مُنظِّماً شُعبةٌ في تنظيم الحركة، أو يتطوَّع لها مُتحمِّسون بغير دوافع خاصَّة سِوى حُب الثورة يومئذٍ، ورغبتهم في أن يرموا بسهمٍ مهما منعتهُم أقدارٌ عن مباشرة الجهاد والرَّمي من ساحاته.

لكن إعلام الجِهَاد شأن جملة إعلام ثورة الإنقاذ لم يَستثمِر الإقبال الحاشد المتحمِّس الذي هَرَعَ يسمع إليه، فإذ تبايَنَ المنهجُ العسكري الرسمي مع إعلام الدِّفاع الشَّعبي، فإن

وجود برامج الجهاد المحضة المُباشرة في التلفزيون القومي كان صدمَةً مفاجئةً لُمشاهدين لم يتهيَّأوا لحماسة الأيديولوجيا المتفجِّرة في ساحات الجِهَاد، إذ نُقِلَت رأساً لخاصَّة بيوتهم ومجالسهم، بل ظلَّت تلك الرُوح تناقضُ بقيَّة بث الجهاز القومي وبرامجه، فأُدخِلَت عليها تعديلاتٌ رقيقةٌ وغليظة من قِبَلِ إدارات التلفزيون لتُوائِمَ رُوح الجهاد وأنباءَه الملتزمة للثورة وبرامجها وجهادها، كما لم تُهَيِّئ حماسة الثورة الأولى ومشاغِلُها الكثيفة ومُوازناتها الماليَّة المحدودة أن تَصِلَ كُلَّ ذلك باستراتيجيَّة التعبئة المُستدامة، التي كانت غايةً وهدفاً لخُطة البلاد العُظمى في التنمية والبناء وخُطة الحركة في التغيير الاجتماعي.

وإذ لم تُواكِب ذلك الجِهَاد ثورةٌ في الفكر أو الثقافة ولم تُسجِّل ساحاته ومعاركه وملاحمه تراثاً يُوافي مَدَّهُ القوي يومئذٍ، فإن خُطة برنامج ساحات الفِدَاء الأولى لم تَجِد مادة أفضل من المعارك العسكريَّة وسِيَر الشهداء وأنباء المُتحرِّكات، لتُصبِحَ الخُطة قابلة للتنفيذ بمددٍ من فِكرِ المجُاهدين وإنتاجهم الثقافي والفني شعراً أو مسرحاً أو ندوات، بل إن محاولة يتيمة تصدَّى لها بعضُ المجاهدين لمناقشة قضايا ساخنةً في السياسة والفكر، سُرعان ما استَدرَكَهَا نائبُ الأمين العام شخصياً وأوقفها[١٠].

❊❊❊❊❊

منذ أوَّل تنفيذ خُطة التمكين في العقد السبعين من القرن الماضي انحَصَرَت العلاقة بمؤسَّسات الضَّبط والقوَّة (الجيش والشرطة وجهاز الأمن) بالمكتب الخاص، مهما يكُن قِوامُهُ من العناصر المدنيَّة التي تقوم وسيطة بينهُم وبين قيادة الحركة (أمينُها العام والمسؤول الخاص)، فهي مضبوطةٌ كذلك بحساسيَّة مؤسَّسات القوَّة ومحصورةٌ سرّاً بين المُتَوالين في السَلاسِلِ الموصُولَةِ بجِسمِ الحركة، وقد تُرِكَت رِعايَةُ أفرادها ومُتابَعَة دقائِقِها الفنيَّة والعسكريَّة وتهيِئَتِها لأيِّما تَغَيُّرٍ لذلك المكتب معزولةً في جسمٍ عن بقية جسم الحركة وأنظِمَتِها

كذلك تطوَّرَ الأمرُ داخل جهاز الشرطة، فمُنذُ العقد الثمانين دَفَعَ المكتبُ الخاص بعناصر ملتزمة إلى كليَّة الشرطة ضُبَّاطاً أو أصدقاء للشرطة فانسلكوا في أجهزتها وأدَّوا ذات عملها لإنفاذ استراتيجيَّة التمكين في ذلك القطاع المُهِم، وقد كان الشكلُ التنظيمي لأوَّل عهده يُعنَى بالتزكية الخاصة لعناصره، و يُوالي في ذات الوقت اختبار العناصر التي يُصَوِّبُ

(١٠) اختارت جماعة من المجاهدين الطلاب بقيادة "علي عبدالفتاح"، الذي كان قائداً طلابياً معروفاً في الجهاد وشاعراً متميزاً ثم أصبح شهيداً مشهوراً، اختارت أن تقدِّم برنامجاً في التلفزيون القومي يناقش قضايا سياسية وفكرية ساخنة، وإذ تشعَّب النقاش حراً في أولى الحلقات مع الدكتور حسن مكي حول القضية الفلسطينية والعلاقة مع إسرائيل، اتصل الأستاذ علي عثمان محمد طه بمدير التلفزيون وأوقف البرنامج دون الرجوع لأمانة الإعلام التنظيمية.

obeikandi.com

نحوها ويَكسَبُهُم ملتزمين لعهد الحركة وسِرِّها عَبرَ أطُر الاتصال الفردي الخاص.

لكن مع الثورة، هيَّأ التمكين تطوراً متقدماً للقطاع لم يلبَثَ أن أعفَى عناصر الإشراف المدني ليتولاّه الضُبَّاط والعساكر الملتزمون، يقومون بمهام القِطاع في العاصمة والولايات، ويرعون الأفراد والكليَّة والشؤون الفنيَّة. ومع توالي الخريجين الملتزمين وتزايُد أعدادهم، أصبَحَ للقطاع مؤتمرٌ عام وهيأة شُورى ومكتب لهُ بحُكم اللائحة بَسطُ عُضويَّة التنظيم ثم نشر العضويَّة في الرُّتَبِ العُليا والوسيطة كسباً بعد الثورة، واعتُمِدَت منهجيَّة الحركة العامة في المُقاربة بين الرسمي والتنظيمي وتوحيد الوظيفة الظاهرة في المؤسَّسة والباطنة في التنظيم حيثُما تيسَّر وتواجَدَ العُنصُر الملتزم. وحقَّقت في ذلك الشرطة تقدُّماً على ما يماثلها من قطاعات.

دخلت كذلك نحو منتصف العام ١٩٩٠ دُفعَة كاملة من الخرِّيجين الجامعيين (الدفعة ٦٠) أغلبهم جاءوا اختياراً من صفِّ الحركة الخالص، تطبيقاً للقرار الذي لم يجِد حظاً من النفاذ في القُوَّات المسلَّحة لكنه أعلَنَ شرطاً للتقديم لكليَّة الشرطة، فقد ظلَّ وزيرُ الداخليَّة مدى عهد الإنقاذ قادماً من القُوَّات المسلَّحة وليس من قطاع الشرطة الأقرب، عصبيَّةٌ أخرى بين أهل المِهَن المتقاربة لكنها أشدُّ حِدَّة، مهما تكُن، فقد نَفَعَت نسبةُ الوزير إلى أولئك إذ لم تُثِر عصبيَّة لتقاليد المؤسَّسة.

جاء الإسلاميون الخرِّيجون إلى كليَّة الشرطة بدَفع الحركة المُباشِر تحدُوهُم أنفاسُ الثورة الأولى، يُريدون أن يبذلوا طاقاتهم وتُريدُ الحركة أن تسدَّ النقص بهم في رسالةٍ جديدة وروحاً للشرطة تُعينُ المواطن وتحميه من غوائل العُدوان والمستهلك من التهريب والبيئة من الإفساد. لكن إذ لم تسبقهم قرارات تُبدِّلُ مناهج الكليَّة وبيئتها وجدوا أنفُسَهُم في الثكنات العسكريَّة يصرُفون ثُلُثي الوقت في التدريب البدني، والثُلثَ الباقي في دراسة بعض مواد القانون، وفي بيئةٍ عادت بهم رجعى إلى عهد الداخليَّات الطلابية لكن بغير طلاقتها وثقافتها.

توالَت الدُّفعات بعد ذلك دُخولاً وتخرُّجاً بغير إصلاحِ لتلك المناهج ولا لبيئة العَمَل بعد التخرُّج، فإذ لم يجدوا نفعاً لكثيرٍ من أشكال التدريب في الواقِع العَمَلِي، وجدوا كذلك بواراً لا يكادُ يَستَثمِرُ ما درسوه من موادٍ نظريَّة قليلة في القانون، إذ أن كامل سُلطة التحقيق وتطبيق القانون بيد وكيل النيابة الذي قد يستفيد من الشرطي ذي الخبرة والعهد الطويل بالعمل، لكن الخرِّيج لا يكادُ يُسعِفُ بشيء، حتى ولو كان قانونياً في أصل دراسته الجامعيَّة.

وإذ ظلَّت مختلفُ أقسام الشرطة وفُرُوعهَا تستقبلُ أولئك الضُّباط من أقسام التحرِّي إلى الجنسيَّة والجواز والبطاقة، ثم حَرَس الحُدود وحرس المُنشآت وحرس الصَّيد

والجهارك، فلم تُبسَط خُطة ترصِدُ تخصُّصاتهم وتُراعِي مواهِبَهم وميولَهم في غياب التنفيذ الدقيق خُطَّة الإصلاح الشامل للمجال الشُّرطي، فآيَس بعضُهُم سريعاً من غناء للنفس أو قناعةً بالعَمَل قد تمُدُّهُم بها مجالات العمل الشرطي وبيئته، أو حتى تطلُّعاً لأملٍ في المُستقبل يستوعِبُ جَهدَهِم مدى عُمرِهِم في العطاء الذي أقبلوا يرهنونه لحياتهم الجديدة، فأنفَض بعضُهُم عن جملة خدمة الشرطة استقالةً أو إقالة أو تركاً في خيبةٍ مبكِّرة نحو مشروع الثورة، وبقي آخرون يعملون بإخلاص، وتبدَّلت دوافِع البعض الآخر يبتغي الشارة والصولجان أو يلتمسُ كُسُوب الثراء السريع في بيئة الفوضى المعروفة.

وإذ كَرَّ الوقتُ واستَرخَت اليد الضّابطة لاختبار الداخليّن مع ازدهاد الملتزمين، تسرَّبت شُبَه الاختراق وخَبَت الرُوح الثوريَّة الأولى ولم تُسعِف مناهجٌ في الفكر والتزكية، بل ثبتت مكاتبُ القِطاع على ذات التربية التي ترجو صلاحاً بالشعائر صلاةً وقياماً وصياماً، دون ما يُوحِّد العمل والوظيفة إلى مقاصد العبادة ويُشبِعُ النُّفوس بالرِضَى، فمضى البعضُ يُديرون مكاتبَ كِبار المسؤولين أو تهوَى نُفُوسُهُم إلى ساحاتِ الجِهَاد، يقودون المعارك يَمسُّهم القرح ويَستَشهِدُون، أو يَرحَلون إلى الولايات الأبعد في مُجاهَدَةٍ أخرى.

لكِنْ الشُّرطة جهازٌ مِهَنِيٌّ يتطوَّرُ أفراده بالعمل الميداني والتَجارب، وقد ظلَّ كذلك منذ نشأته قبل أن يبدأ مع الإنقاذ نمطٌ جديدٌ من الاستيعاب، يُقدِّمُ الولاء والانتماء ويطغى فيه الحِسُّ السياسي، كما تتناقصُ فيه الخِبراتُ بالفَصلِ السياسي والإحالة للمعاش، دونَ أن يُوافي ذلك ثورة تبلُغَ الإصلاحَ المنشود لجُملة علاقة الشرطة بالمجُتمع.

*****

كان للجهاد وقعٌ كبير على قِطاع الطُلاَّب على نحو ما وصفنا، بدَّل سيرته الجليلة في إطار الحركة الإسلاميَّة الواسع، فإذ زوَّد الجهادُ أعداداً كبيرةً من قيادتهم وعامَّةَ عُضويّتهم بتجاربَ كثيفةٍ تفوقُ أعمارَهُم ووضعَهُم في الجبهة الأشدِّ أوان التمكين، وإذ لبُّوا نداء التحدِّي ووازوا قامته ودخلوا المعارك مُكَبِّرين مُستَبسِلين واحتسبُوا شُهداءَهم صابرين، وإذا احتفلت الخُرطوم بالنصر التزموا معاهِدَهُم وجامعاتهم، وإذا تحدَّدت الحرب قاموا من جديدٍ مبادرين للجهاد. لكنهم إذا سدُّوا تلك الثُّغور انفتحت بالفراغ الحاجة للكلمة والدعوة والعمل الثقافي والفِكري، فضلاً عن النشاطُ السياسي في مرحلة تحولٍ دقيقٍ لقِطَاع الطُلاَّب من المعارضة المعهودة لأيّما نظام حكومة إلى المُدافَعَة واستفراغ الوُسعِ عن الإنقاذ، ولو حرباً وجهاداً واستشهاداً. والحقُّ أن اندفاع الحركة الإسلاميَّة كافة إلى الثغور قد أضعف وقعها في وسط الحياة وعُمقِ المجتمع وتأثيرها على قُوَاهُ الحيَّة، لكن الأثر كان أشدَّ

obeikandi.com

عن قطاع الطُلاَّب، إذ غابوا عن ساحة الحياة التي لا تَعرِفُ الفراغ لتمتلئ بأصواتٍ أخرى وأفكار عادة رجعيَّة عن الأفُق الرَّحِب لحركة الإسلام الحديثة، إلى أطُر الإسلام البدوي وتقاليده الميِّتة، أو انفَتَحَت الأجيال الجديدة للأفكار المُستورَدَة القاتلة. ثم كان للحرب ومعاركها ومجتمعها، والملامسة القريبة للقِطَاع الأبعد عن الطُلاَّب من الضُبَّاط والجُنود وحَيَوَاتِهم وثقافَتِهم، كان لها كذلك أثرُها على روح أولئك المجاهدين الطُلاَّب، باعَدَتهُم عن حياتهم المنظومة بين أجيالهم وعن بيئة الدراسة والاستيعاب، خاصَّة وقد انتَظَمَ بعضُهم في ساحة الحرب كأنه يمتهن الجهاد، وعاد عليهم كُلُّ ذلك بغُربةٍ حتى عن عامة الحياة المدنيَّة اليوميَّة للمُجتمع، وظَهَرَ بعضُهُم يكرهُ حياة الجامعة وتبايُنها الفِكري وحِوارها العقائِدي أو جدَلها السياسي، الذي ظلَّ يُمثِّل المحَضِن الأهم لدَرْبَة قيادة الحركة الإسلاميَّة ولعامة تربية المتعلمين وإزكاء وعيهم، كما بدأ البعض ينتظمُ في جماعاتٍ خارج أطُر إمارات الجِهَاد العديدة بل ويتواجدُ فيها جميعاً، تحرِّكه أشواق الحركة ورَدُّ العُدوان، وتُضجِرُهُ ارتكازات الجيش أو ما يراه قُعُوداً وتَرَفاً في حياة الخُرطوم والمدينة، حتى خَشِيَت قيادة الحركة والدولة من تمدُّدٍ لنموذج "طَالِبَان" الأفغاني بين طُلاَّب الجِهَاد فتعهَّدت تلك الجماعات بالحَلِّ والفَك جميعاً[11].

لكن إذ تكاثرت جَبَهاتُ الحرب في الجنوب والشرق وجنوب النيل الأزرق وجنوب كُردُفان وزَهِدَت القطاعاتُ التي كانت تُغَذِّي الجيش بالجُنود، واتَّصلت مُشكِلاتُ مُوازنة الجيش التي بدأت مُبكِّراً منذ أوَّل الإنقاذ واتصلت أزماتُها مع وزارة الماليَّة ومحافِظِي بنك السودان وتسبَّبت في إعفاء أغلبهم، وإذ ظلَّ القائدُ العام رئيسُ الجُمهوريَّة يطلُبُ أن تكون مفتوحة، تَجَدَّد الرأي في قيادة الحركة نحو تطوير الدِّفَاع الشَّعبي اعتماداً على الطُلاَّب، لا سيَّما عُضويَّة صف الحركة الإسلاميَّة الملتزم الذين والوا الجهاد مَدَى سَبع سنواتٍ، واكتَسَبوا منعةً وخِبرَة، أن يُحشَدُوا في مُعسكَراتٍ أفضل تأهيلاً وأن يُدَرَّبوا على السلاح المُتقَدِّم والثقيل، وأن يُفَرَّغوا شيئاً لدراسةِ نظريات الحرب والتكتيك، وأن تُفتَح نافذةُ العِلم العسكري المُتطوِّر لمن له الرغبة والقابليَّة فيهم، ولو دراسة عُليا للفيزياء النَوَوِيَّة والتكنولوجيا المتقدِّمة، ولكن الخوف من فكرة الجيش المُوازي من العسكريين

(١١) بعد امتداد الانتصارات واتصالها تحريراً للمدن الكبرى، دارت دورة لتتوالى الهزائم، وإذا تعسَّر المحور الأهم "سندروا" لتحرير يمُولِي الذي وقف يعطل حتى محادثات السلام، بدأت أحاديث المجاهدين ووصايا الشهداء تتحدَّث عن ابتلاءٍ كئود يمنع التقدم والانتصار بعد أن أصبحوا أكثر تدريباً ودربة على الحرب، يشيرون إلى مشكلات في القيادة والحكومة، فاندفع فوج منهم يحيون معنىً قرءانياً اسماً لمجموعتهم "سائحون" يطوفون على المتحرِّكات ويدخلون المعارك يتقدَّمونها ثم يَعمَدون إلى أخرى، فأضاء ذلك الإشارات الحمراء للقيادة السياسية في الجهاد.

المِهَنيين والمَدَنيين الشمُوليين عَدَّلَت ذلك الرأيِ نحو حَشدِ كل قِطاع الطُلاَّب المُتقدِّم نحو المرحلة الجامعيَّة في الخدمة الوطنيَّة وتهيئته لسَدِّ الفراغ في جبهات القتل أو إعداداً لأسوأ الاحتمالات، التي أصبحَت تُهَدِّدُ ذاتَ بقاء السودان مُوحَّداً، واستمرار دَولَتِهِ مُتكَامِلَة.

ورغم أن السُنَّة التي مَضَت في كثير دُوَل العالم في استيعاب الطُلاَّب لبعض الوقت في معسكراتٍ لتدريب الخدمة قد بدأت في الانحسار بتخلِّي الدُول التي استهلَّت العمل بها عنها وإلغائها، فقد اتَّفَق الرأي في قيادة الحركة على تدريب طُلاَّب المرحلة الثانويَّة الداخلين إلى الجامعات نحو شهرين تدريباً عسكرياً أولياً، يَتَطَوَّر وِفْقَ نتائج التجربة ومقتضى كل مرحلةٍ (نحو خمسة وستين ألفاً من الطُلاَّب) ثم يُسَرَّحون إلى جامعاتهم، ولا يُستَدعَون للقتال إلاَّ للميدان الذي يُناسِبُ أعمارهُم الغضَّة وتجاربهم المحدودة، حِفظاً لثُغور المُدُن أو حراسة بعض المؤسَّسات عند الطوارئ. كما استُدعِيَ الطُلاَّب الحربيون في الكليَّة الحربيَّة ليُوالوا تدريب التلامذة بعد أن عُطِّلَت الكُليَّة لبعض أشهُر، حتى يُباعِد بينهم وبين شدَّة عناصر "المُعلِّمين" في الجيش التقليدي، ثم يُصحَبُ التدريب العسكري ببرنامجٍ تربوي ثقافي يُكمِلَ إعدادهم لجملة حياتهم المقبلة في المجتمع.

نجحت خُطة الخدمة الوطنية لأوَّل الأمر وتجاوب معها الطلاب بما حملت لهُم من إثارة وتَحَدٍ، رغم قساوة الحياة في المُعسكَرات لا سيَّما لأوَّل مُفتَتَحِهَا، إذ لم يُتَوَخَّ الوقت والخُطَّة لإعدادٍ يَستَقبِلُ الأعداد الكبيرة، كما والَت الإدارة العُليا للمكتب الخاص المُراقبة القريبة للتجربة، ألاَّ يُضارَّ منها فلذاتُ الأكباد وقد أودِعَت معهُم آمالُ الأهل وتُعَوِّلُ عليهُم كُل خُطَّة المستقبل. فكما انتَظَم التدريب العسكري، انبَثَت الأسماءُ المعروفة في الحركة الإسلاميَّة تطوفُ عَبرَ كل ولايات السودان، تُقدِّم المحاضرات والبرامج الثقافيَّة في المعسكرات التي توزَّعت، تستغل المدارس ومقرَّات الجيش وساحات الجامعات وكل ما تيسَّر لها.

وإذ استَبشَرَ قادة الإنقاذ بمهرجانات التخريج لدورات "عِزَّة السودان" الأولى، التي هيَّأت لها الولايات بأجهزتها المختلفة لتكون عيداً يُجَدِّدُ للإنقاذ شبابَها الأوَّل، وهي تُبصِرُ جيلاً جديداً بتمامه ينتظمُ في معسكراتها ويتخرَّجُ تحت لوائه وهُم يُكَبِّرون الله ويَحْمَدُونَه، تَفَتَّقَت العبقريَّة السَّوْداء للشموليِّين عن نقلة جديدة، كان لها كذلك وقعُها السَيِّئ البالغ على قِطاع الطُلاَّب وعلى ذات فكرة الخدمة الوطنيَّة للطُلاَّب.

فقد ثار جدلٌ منذ أوَّلُ الثورة حول أصول فِقه الجِهَاد مع الأمين العام كما تُبسِّطُهُ كُتُبُ الفِقهِ القديم، وتحديداً حول الفَرْض على المجتمع للقِيام عليه، والإلزام للفرد أن يؤدِّيه، ومسؤوليةُ الدولة في كُل ذلك، وإذ تَصَوَّبَت رُؤية الأمين العام أن المُؤمن يمضي إلى

الجهاد طوعاً ورِضىً ببذلٍ من خاصة ماله في سبيله وليس للدولة أن تحشِدَهُ قهراً وغَلَبَة، وألاَّ تُؤخذُ حتى الضرائب والجِبَايَات قَسْراً لمُقابَلَة مطلوبات الجِهَاد، بل أن يُترَك الميدان مُتاحاً للناس بالطَّوعِ والاختِيَار، وأن يَتَنَاصَرَ المجتمع والدولة للوفاء بفُروضه وواجباته، زكاةً وصدقاتٍ في سبيل الله من المجتمع، والإعداد للقُوَّة والربَاط المُنتظِم من الدولة.

لكن إذ بدأ عهدُ الخِدمَة الوطنيَّة منذ أوَّل الإنقاذ يأخُذُ الشَّبابَ قسراً بالسلوك العسكري الجانِح للعُنف، ينصُبُ الحواجز في الطُّرُق ويُرَوِّعُ الراكبين والراجلين وقد تُطرَقُ البُيوت وتُقتَحَمُ الحُرُمات بحثاً عن الضَّحايا الهاربين، أو يُترَبَّصُ بِهِم في المطارات والموانئ يُعَطَّلُ حَقُّهم الدستوري في الحركة، أو تُعَطَّل طاقاتُهُم في الدراسة والعمل بِمَسْكِ شَهادَاتِهِم الأكاديميَّة العمليَّة، قبل أن يغدو كُلُّ ذلك محض جِبايةٍ تأكُلُ أموالَ الناس بالبَاطِل، وتطوَّر ذلك في ذات الاتجاه تقودُهَ ذاتُ الثقافة المُستَبِدَّة، ولكن نحوَ القِطَاع الأضعَفَ في المجُتمع من حيثُ الوَقع والنُفُوذ، تبتغي استثمارَ محض قُوَّته الجُسمانيَّة ولا تَعبأ بالخلفة السَيِّئة التي يترُكُها، يمنعُها نظرٌ قاصِر وتَطَلُّعٍ نُخبَوِي لنُجُومِ الإنجاز.

ورَغمَ أن الكثيرين جَلَبُوا أبناءَهُم طَائِعين فَرِحِين، يبغون بناءً لشخصيَّاتِهم بين يَدَي مرحلة تحوُّلٍ فاصلةٍ في تاريخ الشاب نحو الجامعة، ثم المهرجانات السياسيَّة التي انتَظَمَت كل لساحات لدى التخريج، فقد أعقَبَ كُلَّ ذلك حشدٌ للمُتخَرِّجين بالقُوَّة إلى مطار الخُرطوم، ثُمَّ إلى جَبَهَات القتال في مناطق العمليَّات، مخادَعَةً لم تَصْدُقْهُم في المَقصِد الذي سيُؤخَذون إليه، فشَهِدَت شَوارِع العاصمة أرتالاً من اليافعين مُطارَدين، وقد هَرَبُوا من الطائِرَات التي أُعِدَّت لتَحمِلَهُم كُرهاً إلى الحرب، قبل تَبَلُّغِ السُّمعَة السَيِّئة لتجرِبَة الخِدمَة الوطنيَّة كل أنحاء السودان، وليُحيطَ المُكرُ السَيِّئ بأهلِهِ في مأساة ''مُعَسكَر العَيلَفُون'' بين يَدَي عِيد الفِطرِ المُبارك، في مَذبَحةٍ أخرى جدَّدت ثانيةً ذِكرَى الدم المهراق في الأعياد من قِبَلِ قادة ثورة الإنقاذ الوَطَنِي (١٢).

لكن المُخادَعَة أفضَت إلى سُمعةٍ سيئة لجهاز الخدمة الوطنيَّة وأسدَت ضربةً ثانيةً لِقِطاعِ الطُلاَّب في الحركة الإسلاميَّة، كما لم تُثمِرْ نصراً في الحرب إذ لم يُقاتِل اليُفَّع

---

(١٢) في ٢١/٠٤/١٩٩٨ غرق في النيل نحو (٧٠) طالباً من بين (١١٦٢) حُشِدوا في معسكر "السّليت" بمنطقة العَيلَفون وهُم يحاولون الهرب بالمراكب على الضفة الشرقية للنيل، بعد أن تأكد لديهم مخادعة الأخذ بالقوة لمناطق العمليات. وفيما صرّح عبدالرحيم محمد حسين وزير الداخلية لصحيفة "الشرق الأوسط" من القاهرة: «يبدو أن سبب الهروب هو كرهِهِم للقتال وخوفِهِم منه فضلا عن أنهم أجبروا على دخول المعسكر»، صرّح وزير العدل عبدالباسط سبدرات مع بداية تنفيذ خطة الخدمة الوطنية ولذات صحيفة "الشرق الأوسط" (٠٢/١٢/١٩٩٧): «إن السودان شعبه ثوري بمعنى إذا حدث وأخذت أي شخص عمره أقل من ١٨ عام لا يمكن أن يقبل ويمكن أن يخرج علينا هو وقبيلته بثورة غير عادية».

المقهورون بما يصُدُّ غوائل الهُجُوم المجْتَمِع الذي أخذ يَتَبَلوَر من كلِّ الحدود، كما أُضيرَت ذات سُمعة "المشروعُ الحَضَارِي"،إذ لم يَعقُب الحادثة السُؤالُ والتحقيق والعِقَابُ، بل رُفِعَت الأقلام وجَفَّتِ الصُّحُف.

*****

مع اتِّساع جبهات القتال انحَسَرَ الدِّفَاعُ الشعبي بعد أن بلغ تمامَهُ واستَنفَدَ أغراضه، إذ تزايَدَت أعدادُ الداخلين وتدنِّي المُستوى عمَّا عُهِدَ في عامَّة أداء المجُاهِدين وسُلوكِهِم مُنذُ أوَّل التَجرِبَة، وإذ لم تعُد تجربَة الخِدمَة الوطنيَّة بما كان يَرجُو المُخطِّطُون والمُنَفِّذُون لها، تجدَّدت مرَّة أخرى رُؤية تَهيِئَة الصَفِّ المُلتزِم في الحركة ليُشكِّل نواةً لجيشٍ جديدٍ بديل، انتُخِبَ لها على الفور بِضعُ مِئاتٍ من الطُّلاَّب المجُاهِدين الذين ظَلُّوا يختلفون لميادين الجِهَاد، ويَرتَادُون ساحاته على نحوٍ دائم مَدَى عشريَّة الإنقاذ الأولى وقد اكتَسَبُوا خبرةً وتجربةً، وإن عادوا بِمَوجِدَةٍ كبيرةٍ على قيادة الجِهَاد العسكريَّة والسياسيَّة، فمَهما رُتِّبت لهُم المناهج لتمام تأهيلِهِم العسكري، فقد تَصَوَّب الرأي يرجُو لهُم تأهيلاً أهمَّ في فِقهِ الحياة الموصول بفِقهِ الجِهَاد، فانفَتَحَت مع ذلك المُعسكَر فرصُ العِلمِ والحِوَار والتداوُل حول مختلف الموضوعات، يُقدِّمُها مختلفُ المحُاضِرين الذين انتظموا في زيارة المُعسكَر.

لكن الحرب نحوَ الجنوب خاصَّة لم تنتظر كمالَ الخُطَّة وتمامَ التأهيل، فاندَلَعَت أشدَّ ضراوةً نحو خاتمةِ العقد التسعين، وإذ تداخَلت تعقيداتُ اتفاقيَّة السَلام وتمرُّد ما يُعرفُ بـ"القُوَّات الصَّديقَة" في منطقة غرب النُّوير، ارتَفَعَ النِّداءُ للاستنفار يحشِدُ المجموعة الخاصَّة التي جُمِعَت للإعداد والتأهيل زاداً لقيادة الحركة في المُستَقبَل، فمضوا رأساً من مُعسكَر الإعداد المُتقدِّم إلى ميدان المعركة بغيرِ سِلاحٍ، موعُودين أن القُوَّات المُسلَّحة ستُوالي تزويدهم فورَ وُصُولِهم، وإذ تردَّد المجُاهِدون واحتَجَّ بعضُهُم بما عَهِدُوا من علاقات الجيش وما عَرِفُوا من سَوَابِقِ القتال، كانت القيادة العسكريَّة السياسيَّة للجِهَاد تُلِحُّ عليهم في التقدُّم بغير عتاد، ليكونوا لُقمَةً سائِغَةً استطعمتها في سهولةٍ شِدَّة القتال المُستَعِر بين القائِدَين الجَنُوبيَّين الأشهَرَ في تلك المِنطَقَة.

وبإعلان أسماء شُهداء مُعسكَرِ "هَيْكَل" وهُم من أفضَلِ قيادة الحَرَكَة في الطُّلاَّب بالعَشَرَات (نحوٌ من مئَتَي مجُاهِدٍ دخلوا المَعرِكَة، عَادَ مِنهُم بِضعُ عَشَراتٍ، مُعظَمُهُم مُصابٌ إصابةٌ خطيرة) اختَتَمَ الجِهَادُ قِصَّتَه بِمَوْتٍ عزيزٍ في أدغالِ الغابات الاستِوائيَّة، بعد أن قضى آخرون من ذَاتِ قِطَاعِ الطُّلاَّب في ضِفة النهر قريباً من الخُرطوم، قبل أن تُعلَنَ وشِيكاً خاتِمَةُ قِصَّة ثورةِ الإنقاذ مَع الحَرَكَة الإسلاميَّة نفسِها في خِتَامِ ذلك العَام.